الفصـــل الأول

الرحلة العربية.... وأدب الرحلات

«المفهوم»

obeikandl.com

obeikandl.com

الرحلة العربية... وأدب الرحلات

فيما يشبه الإجماع، اتفق الباحثون على أن الرحلة العربية مرت بأطوار متعددة، حتى بلغت أوج ازدهارها فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وهو ازدهار أدت إليه عوامل كثيرة، كان أهمها الازدهار الحضارى فى القرن نفسه.

هذا الازدهار الحضارى العام، وازدهار الرحلة بشكل خاص، أملى على أصحاب الرحلة النابهين أن يدونوا وقائع رحلاتهم يحدوهم إلى ذلك أسباب متعددة.

وحسب الهدف ومدى تمكنه من الرحال، وتحكمه فيه، انقسم نتاج الرحلات المدونة إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

أ – جغرافيا وصفية، يسيطر عليها النهج العلمى.

ب – أدبى جغرافى، يوازن بين النهج العلمى، والأسلوب الأدبى.

جـ –أدب رحلات، يمثل الأدب فيه محور الانتباه – وإن لم يخل من الجانب العلمى الذى يرد فى صورة غير مباشرة.

لقد توزعت النصوص التى تتناول الرحلات العربية على هذه الأقسام الثلاثة، وكان النتاج كبيرا من حيث الكم، ثريا من حيث الكيف.

هذه النصوص حظيت بقدر كبير من الاهتمام باعتبارها مصادر حضارية، وعلمية، واجتماعية... إلخ، وكانت الثقة فيها كبيرة، ولكن.. واكب هذا الاهتمام إهمال لها باعتبارها «نصوصا أدبية» فلم تحظ بدراسات أدبية ملائمة – لا قديما ولا حديثا – باستثناء محاولات قليلة. وهذا الموقف شارك فيه الباحثون العرب، والمستعربون– على السواء.

ويلاحظ أن كثيرا من المستعربين قدموا خدمات جليلة لهذا الفرع من الدراسات، حتى إنه يمكن اعتباره الفرع الأول الذى نال اهتمامهم، فحققوا النصوص تحقيقا علميا دقيقا، وراعوا أسسا منهجية صارمة فى تحقيق النصوص

ونقدها، فالنص الفرد كان يعاد تحقيقه وطبعه أكثر من مرة فى سنوات متقاربة – إذا ظهرت مخطوطة جديدة، أو تلقى محققه ملاحظات من قارئيه.

هذا كله أتاح الفرصة لدراسة فنية لم تتحقق حتى الآن بالشكل المرجو بسبب النظر لهذا النوع على أنه فرع من الجغرافيا.

إن الدراسات العربية لا يمكن – بحال – مقارنتها بالدراسات الأوروبية فى هذا المجال، فالمقارنة ستكون فى غير صالح الباحثين العرب. ولكن.. «يتزايد الشعور – الآن – بأن الباحثين الذين ينتمون إلى الوسط الثقافى الإسلامى، قد يكونون أقدر على تقدير وتقويم هذه الثمار الرائعة، كما إنهم – فى هذا السبيل – قد يمكنهم أن يتوقوا كثيرا من المزالق، ويتغلبوا على شيء من الصعاب الثقافية، واللغوية، والدينية، والاجتماعية، التى تعترض سبيل الباحث الغريب – مهما كان مدققا فى عمله، متجاوبا فى روحه»[1].

والملاحظ أن الدراسات العربية – فى هذا المجال – سلكت نهج المستعربين، وانقسمت إلى اتجاهين :

أ – دراسة الموضوع بشكل عام.

ب – الاقتصار على رحلة واحدة فقط.

الفريق الأول درس هذه النصوص إما باعتبارها نصوصا جغرافية خالصة، أو من وجهة النظر التاريخية، مكتفيا بترتيبها ترتيبا زمنيا، مع اقتباس بعض الفقرات، والتعريف بصاحبها تعريفا عابرا. ولكن هذه الدراسات قلّ خطرها عندما طوّق صلاح الدين عثمان هاشم عنق الأدب العربى بترجمته المتميزة لكتاب «كراتشكوفسكى» النفيس «تاريخ الأدب الجغرافى العربى».

وثمة دراسات اقتربت من الأدب، أو حامت حوله دون أن تختص به، أو تنفذ إلى صميمه – إضافة إلى بعض المقالات التى ضمتها دوريات كرست أعدادا خاصة لأدب الرحلات.

---

(١) جهود المسلمين فى الجغرافيا. نفيس أحمد. ترجمة فتحى عثمان. القاهرة دار الهلال د. ت ١٥، وقد أعيد نشره باسم «الفكر الجغرافى فى التراث الإسلامى عام ١٩٨٤. دار القلم. الكويت.

أما الفريق الثاني، فقد تناول رحالا – أونصا – بالدرس : إما فى مقدمة تحقيقه للنص، أو متتبعاً إياه فى رحلته، باحثا، ومنقبا، ومحللا، غير أن الجانب الفنى باهت فى أغلب تلك الجهود.

المحصلة : أن نصوص الرحلات العربية – فى الإطار الزمنى لهذه الدراسة لم تحظ بدراسات توفيها حقها، وترفع عنها الغبن الذى لحق بها من جراء استخدام مناهج غير ملائمة فى دراستها، وهذا كله يدعو إلى درسها من منظور جديد.

* * *

الرحلة.. فى اللغة

إذا اعتبرنا أن الحجم الذى تحتله مادة ما فى معجم لغوى دليل على أهميتها، فإن مادة «رحل» نالت اهتماما خاصا من «صاحب اللسان»، باعتبارها مادة متداولة على نطاق واسع، ونابعة من واقع البيئة العربية. جاء فى «لسان العرب» أن :

– «الرحيل والإرحال بمعنى الإشخاص والإزعاج. يقال : رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورجل رحول، وقوم رحّل: أى يرتحلون كثيرا. ورجل رَحّال : عالم بذلك مجيد له... والراحلة من الإبل : البعير القوى على الأسفار والأحمال.. وناقة رحيلة: أى شديدة قوية على السير.. وارتحل البعير رحلة : سار فمضى، ثم جرى ذلك فى المنطق، حتى قيل : ارتحل القوم عن المكان ارتحالا، ورحل عن المكان يرحل، وهو راحل من قوم رحّل.

– «والترحُّل والارتحال: الانتقال، وهو : الرِّحلة والرُّحلة. والرحلة اسم للارتحال للمسير.

– «والمرحلة : المنزلة يرتحل منها، وما بين المنزلتين مَرْحَلَة»[1] .

ويُلاحظ ما يلى على هذه المادة :

أ – أن مشتقات المادة جميعا تدور حول محور واحد هو الحركة، والرحلة فى جوهرها حركة وانتقال.

(١) لسان العرب. ابن منظور تحقيق عبد الله الكبير وآخرين، ط دار المعارف ١٩٧٩. ص ص ١٦٠٩ – ١٦١١.

ب – أن التقليبات المختلفة للمادة مثل : حرل – لرح – لحر.. إلخ – غير مستعملة فى العربية، ولعل هذا يعود إلى استئثار تلك المادة – بهذا الترتيب – بالنصيب الأوفر من حيث الاستخدام، مما أدى إلى الجور على التقليبات الأخرى.

جـ – اسم الفاعل من رحل: راحل، وصيغة المبالغة: رَحّال. وهذه الصيغة كانت اسما أو لقبا لبعض الجاهليين، كعروة الرحال الذى كان سببا فى يوم «الفجار»، وكذا أورد «ياقوت» فى معجمه هذا الاسم «رحال بن عنقرة»[1]. وقد تزاد التاء للمبالغة، فيقال : «فلان الرَّحّالة»، ولكن هذه الصيغة تختلط مع جمع التكسير حين نقول : «الرحالة المسلمون»، ولذا يفضل الاكتفاء بالصيغة الأولى دون زيادة التاء، حتى لا تختلط بجمع التكسير.

* * *

الرحلة.. فى الاصطلاح

عرّف الإمام الغزالى السفر – والرحلة– بأنهما: «نوع حركة ومخالطة»، أو : «نوع مخالطة مع زيادة تعب ومشقة»، وأوضح أن «الفوائد الباعثة على السفر لا تخلو من هرب أو طلب، وأن الإنسان لا يسافر إلا فى غرض، والغرض هو المحرك»[2].

وعرفها «بطرس البستانى» بأنها : «انتقال واحد – أو جماعة – من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة، وأسباب متعددة»[3].

وتقدم د/ صلاح الدين الشامى خطوات حين عدها «إنجازا أو فعلا فرديا أو جماعيا لما يعنيه اختراق حاجز المسافة، وإسقاط الفاصل المعين بين المكان والمكان الآخر، ويتأتى هذا الإنجاز من أجل هدف معين، ويجاوب هذا الهدف إرادة الإنسان

(١) معجم البلدان. ياقوت الحموى – دار صادر/. بيروت ١٩٨٦ ٥/٤٠٥.

(٢) إحياء علوم الدين – الإمام الغزالى مكتبة الدعوة الإسلامية «القاهرة» م د. ت. ٢/٢٤٥، ٢/٢٥٠، ٢/ ٢٦٠.

(٣) دائرة المعارف. بطرس البستانى. مطبعة المعارف بيروت. ١٨٨٤، ٨/ ٥٦٤.

وحركة الحياة على الأرض بشكل مباشر أو غير مباشر.. وقد تكون الرحلة هواية تشبع حاجة الإنسان وترضيه، وقد تكون احترافا يخدم حاجة الإنسان ويشبعه، ولكنها تكون – فى الحالتين – استجابة مباشرة لحوافز ودوافع محددة تدعو بكل الإلحاح للحركة والتنقل»[١].

إن التعريفات السابقة تجمع على أن الرحلة فى جوهرها حركة، وهذه الحركة ذات هدف – وإلا كانت سفها – قد يتحقق وقد لا يتحقق، وسيتم – فى الحالتين كلتيهما – اكتساب خبرات عملية وفكرية ناجمة عن المخالطة. وبذلك يتم التقابل بين الرحلة فى اللغة والاصطلاح حيث يجمعهما أنهما «حركة».

الرحلة والحركة:

الحركة جوهر الرحلة، وهى مكون أصيل من مكونات الإنسان، لأن الحركة دليل حياة ـ كما يقول ياقوت الحموى، والسكون ـ عنده ـ «من دلائل الموت، وأن تتحرك حركة ضعيفة يؤمل أن تقوى، أحب إلى من أن تسكن».[٢] وهى عند أبى حيان التوحيدى «أوضح برهان على كل موجود حسى».[٣] بل إن من يتحرك حركة ولو بسيطة يستحق «مكافأة لأنه انتقل من مكان إلى مكان، أو فكر فى أن يترك الأرض التى ضاق بها، أو البيت الذى مل الإقامة فيه»[٤] وإذا كان «الذهاب يقتضى العودة ثانية، فإن ذلك تحرك دائم، وفى كل حال ـ ذهاب أو عودة ـ فإن تلك حركة، والحركة ـ أية حركة ـ شيىء ممتاز».[٥] وليست كل حركة رحلة، وما يميز الرحلة عن غيرها أنها غاية لذاتها، أى أنها حركة من أجل الحركة ذاتها ـ ابتداء، بينما غيرها وسيلة. ولأن الرحلة حركة أصيلة، فإن الرحالين يتغاضون عن وصف فترات التوقف والسكون العارض لعذر قاهر أو غير قاهر، بل إن كثيراً من الرحالين أعلن ضيقه وبرمه بالملل الذى يحل به من جراء طول المقام فى مكان

---

(١) عالم الفكر. د/ صلاح الدين الشامى. عدد يناير ١٩٨٣، الكويت، ص ١٣.

(٢) معجم البلدان جـ٢/٤٢٠

(٣) الإمتاع والمؤانسة. أبو حيان التوحيدى. تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، بيروت ١٩٥٣، جـ/١٥٦

(٤) غريب فى بلاد غريبة . أنيس منصور . دار الشروق القاهرة ١٩٧٥ . ص٥

Travel Quest.M.A.Michael.London.1950.P.289

واحد، مما دفعه إلى استنزاف كل طاقات المكان الذى حل به، محولا الحركة من التوسع الأفقى إلى التوسع الرأسى... المهم أن تكون هناك حركة ـ غير أن المبدأ أنه كلما سمت همة الرحال إلى زيارة أماكن بعيدة ـ جديدة ـ باذلا جهداً نحو الحركة المتوسعة أفقيا، فإن ذلك يدلك على سعة أفقه وتوفره على طاقات خلاقة.

وهذه الحركة ليست على المستوى البدنى فحسب، وإنما يجب أن تشمل المستويات كافة، لابد أن تعمل جميع الحواس بطاقتها القصوى، وأن تكون مستنفرة وفى حالة يقظة دائمة ـ حتى ينعكس ذلك إيجابيا على وصف الرحلة. ويجب أن يكون فى الحسبان أن قوة حركة الرحلة ليست على وتيرة واحدة، فمن شأن الرحلة «أن تبدأ وهى فى أشد حالات التشوق واللهفة والإصرار، ولكن عندما تخرج بالفعل، وتتحرك على الطريق، وتضرب فى الأرض- قد لا تملك الحماس لكى تتعجل، ولا تجد المبرر لكى تواصل التحرك من غير توقف، ولا يبقى لها بعد ذلك إلا الإصرار ـ مهما بعدت الشقة ـ على استمرار التحرك وبلوغ الغاية. ولا شىء مهماً يمكن أن ينهى العزم أو أن يحبط الإصرار.. ولا مانع من التوقف طويلا، والتخلف من حين لآخر لالتقاط الأنفاس... ولا تعارض أبداً بين التشوق واللهفة التى تحفز الرحلة وتتعجل خروجها من ناحية، والتأنى والتوقف أكثر من وقفة على الطريق من ناحية أخرى... طلبا للرزق الحلال وجمع نفقات الرحلة»[1].

دوافع الرحلة وأسبابها:

يحرك الرحلة ويخرجها شيئان:

١ ـ دوافع ذاتية.

٢ ـ أسباب عامة.

الدوافع الذاتية هى الأساس الذى تبنى عليه الرحلة، ثم تأتى الأسباب الظاهرية والعامة لتكون مبرراً مقبولاً للقيام بهذه الرحلة.

(١) الرحلة عين الجغرافيا المبصرة. د. صلاح الدين الشامى. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٨٢. ص ٩٨ ـ ٩٩.

الأساس أن الرحلة غاية، وأنها ضرورة، بمعنى أنها ليست ـ فى حال الرحال الأصيل ـ ترفاً ولا سبباً لنيل شهرة. إنها «عادة ضارة» كما يقول أحد الباحثين، ولكن هذا الضرر قد يتحول إلى نفع إذا أفلحت فى تحقيق أهدافها.

إن المقصود بالضرورة هنا: «الضرورة الذاتية التى تدفع الإنسان للرحيل رغم أنها قد تكون مضادة لرغباته، أو منافية لتوجهاته العقلية، ومخالفة لاستحسان الآخرين... وربما كان فى نية الرحال أن يعود عندما يرضى بعضاً من فضوله وحب استطلاعه، وعندما يخمد حافزه لرؤية الأقطار الأخرى وسكانها، ولكن الرحلة من أجل الرحلة ذاتها كالإبحار الممتع، أو مجرد طواف الأرض، ليست إلا المحركات الطبيعية للرحلة»[١].

ورغم ذلك فإن الرحلة «حالة عقلية»، بمعنى أنها ليست ضربا من تغييب الوعى.. بل هى محاولة لإعادة هذا الوعى فى صورة قوية.

وما يلى محاولة لرصد أهم دوافع وأسباب الرحلة دون ادعاء حصرها.

إن الرحلة تخرج من أجل:

– الكشف عما يجمع ولا يفرق، عما هو أصيل غير عارض، عن حقيقة الكون.

– الرغبة فى العزلة والتأمل لأنهما «اثنتان من الحاجات الضرورية اللازمة لأى شخص مفكر.. وما يسمى بحالة الانشراح لا يمكن انتظارها بل يجب أن نسعى إليها بأنفسنا»[٢] ذلك الانشراح هو الذى يؤدى للتجلية والكشف والإبداع.

– البحث عن الجمال المفقود، والسلام المنشود، والفوضى الفطرية: «إننا مفتقرون للجمال.. والسلام واحد من الاشياء التى نبحث عنها... إنك تبحث عن السلام حيث لا يوجد الإنسان، أو ـ على أى حال ـ حيث مازال الإنسان على الفطرة»[٣]

---

1 - Travel Quest P.P.241&243.

2 - Ibid. P.14.

3 - Ibid.P.9

– الوحى والإلهام من أجل الإبداع، وقد كان بعض الشعراء العرب يرحلون إلى البادية إذا تعذر عليهم قول الشعر، فتعمل الصحراء الخالية على تصفية الذهن وتجويد القريحة. سئل الشاعر الأموى «نصيب»: «أتطلب القريض أحيانا فيعسر عليك؟ فقال: إى والله لربما فعلت، فآمر براحلتى فيشد عليها رحلى، ثم أسير فى الشعاب الخالية، وأقف فى الرباع المقوية، فيطربنى ذلك، ويفتح لى الشعر»[1].

– وقد يكون الملل الناجم عن الحياة الرتيبة التى يحياها الإنسان دافعاً للرحلة، والرغبة فى التجديد والتغيير قد تلح على الرحال، فتقض مضجعه وتقلق باله، فلا يستريح إلا إذا خطا الخطوات العملية التنفيذية من أجل الرحيل.

– وقد يخرج الرحال إرضاء لفضوله وحب استطلاعه.

– وقد تكون الغيرة الشخصية، أو طلب الشهرة من دوافع الرحلة.

– وقد تصبح الرحلة داء لا يمكن الخلاص منه، فيطلق على صاحبها اسم «الجوال» أو «جوالة».. وقد حظى بهذا اللقب مسلمون كثيرون.

– وباعتبار الرحلة مصدراً حيا من مصادر زيادة الخبرات، فإن كثيرين يلجأون إليها من أجل تنمية قدراتهم الذاتية على مواجهة الحياة فى مختلف الظروف.

– وقد تكون الرحلة من أجل العلم، فهى معلم ممتاز على المستويين: النظرى والعملى، كما أنها وسيلة للإيمان، أو لتثبيته وتأكيده، وذلك من خلال ما يراه الرحال من عجائب وغرائب وبديع صنع.

– وقد تكون الرحلة من أجل القيام بأعمال رسمية، خدمة للدولة التى ينتمى إليها الرحال، كالسفارات الرسمية، ورحلات البريد... إلى غير ذلك.

– وقد تكون ظروف تاريخية معينة داعية للرحلة، كتحرير القدس وزيارة الرحال العربى «ابن جبير» لها، وكاتجاه الأوروبيين إلى الكشف والرحلات كوسيلة من وسائل تعويض الفشل الذى منيت به الحملات الصليبية.

---

(١) الأغانى ١/٣٧٥

وقد تكون الرغبة الشخصية لحاكم وراء الرحلة، كرحلة «سلام الترجمان» للتأكد من قوة السد وسلامته، ورحلات الكثيرين للتأكد من صحة وجود الكهف، أو الكشف عن منابع النيل.

– وقد تكون الرحلة من أجل الجهاد أو تأديب الخارجين.

– وقد تكون من أجل التجارة والكسب المادى بعامة.

– وقد تكون من أجل تأدية فرائض دينية كالحج، أو زيارة المقدسات والأولياء.

– وقد تخرج وفى نيتها نشر دين والدعوة إليه.

– وقد تكون الظروف التى تمر بها دولة سبباً فى الرحلة، خاصة إبان قوة تلك الدولة وازدهارها الحضارى، مما يحفز مواطنيها على رؤية البلاد الأخرى.

– وقد تكون الظروف المواتية والتسهيلات الممنوحة للرحلة وأصحابها دافعا للقيام بها فقد اهتم الإسلام – على سبيل المثال – بأبناء السبيل، وجعل لهم نصيبا مفروضا من الزكاة والصدقات، كما بث فى نفوس أبنائه حب الغرباء، وتمثل هذا الحب فى جهد فردى، أو جهد جماعى أسفر عن تكوين جماعات مهمتها القيام بحاجة الغرباء كجماعة «الفتيان»، وناصر كبار رجال الدولة مثل هذه الجماعات، وانضم إليها بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء والقواد. وكذا حث الإسلام على السفر، وخفف من واجبات المسلم أثناءه، ومن المحتمل « أن إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام كانت تخفف بعض متاعب السفر، ولا تجعل الرحالة المسلمين محل شكوك أو مصدر متاعب اجتماعية، فكان بعضهم يتزوج فى البلاد التى ينزل فيها فترة من الزمان».[1]

ومن هنا كان التأكيد على وجوب معرفة أسباب كل رحلة ودوافعها. وفى حالة كون السبب ظاهريا لابد من التماس دافع ذاتى يكمن فى داخل الرحال ويحركه، وإذا لم يتوفر هذا الدافع ـ أصلاً ـ فقدت الرحلة قيمتها، وأصبحت مجرد وظيفة يقوم بها إنسان– إن طوعاً وإن كرها.

---

(١) الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى. د/ زكى محمد حسن. دار المعارف، ١٩٤٥ ،ص١١

وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى وجود فارق أساسى بين دوافع وأسباب الرحالة القدماء، ودوافع وأسباب الرحالة المحدثين، ويتمثل هذا الفارق فى انبهار القدماء بكل ما هو من عمل الإنسان، وإغفالهم ـ فى الأغلب ـ للطبيعة البكر، بينما يغفل الرحالة المحدثون كل ما قد تدخلت فيه يد الإنسان بالتعديل أو التحريف، إنهم يبحثون عن كل ما هو بكر وفطرى وبدائى.

التغير العظيم الذى حدث للرحلات فى رأى أحد الباحثين ـ هو «التغير من الاهتمام بالإنسان وأعماله إلى الطبيعة وجمالها.... إنه لم يكن هناك حب للطبيعة منذ كان الناس لا يحملون أى تقدير لجمالها إلا إذا تعرضوا لعمل الإنسان فيها أو «لبست ثوبنا»، وفى هذه الأيام سافر الناس أساساً ليروا مماثليهم، وليعلموا المزيد عنهم، ولكننا تخلينا عن بعض غرورنا منذ ذلك الحين، وأصبحنا فى السبيل لأن نرى الطبيعة أعظم فنان، وأن عمل الإنسان يشوه ـ فى الغالب ـ أكثر مما يحسن فيها».[1]

إلا أن هذا الرأى يصدق فحسب على الرحالة الأوروبيين، أما الرحالة المسلمون فقد وازنوا بين الرغبة فى رؤية بديع صنع الله ـ تعالى ـ فى كونه، وبين ما صنعته يد الإنسان ـ خليفة الله فى الأرض.

---

1 - Travel Quest P.3.

أنواع الرحلة العربية

فى تناول الباحثين المعاصرين لتصنيف الرحلات العربية ـ أو الرحالين، ظهر اختلافهم بينا، ففريق اتبع النهج التاريخى، فلجأ إلى الفترة الزمنية كحكم، وغيرهم خلط بين المنهجين: التاريخى والجغرافى،وفريق ثالث استنطق النصوص فأخرج أنواعا لا رابط بينها، وفريق ذهب يعدد ما هو ممكن لا ما هو واقع بالفعل، وفريق ـ أخير ـ اقترب من الحق.

فالدكتور «أحمد رمضان» قسم الرحالة ـ لا الرحلة ـ إلى: رحالة جغرافيين، ورحالة مشارقة، ورحالة مغاربة. والخلط فى المنهج واضح.

والدكتور «شوقى ضيف» صنف الرحلات إلى: رحلات جغرافية، ورحلات بحرية، ورحلات فى الأمم والبلدان. وحال هذا التصنيف كسابقه.

أما الدكتور« حسين فوزى» فقد ميز بين فرق أربع وصفت البلدان:

١ ـ فريق جمع معارف غيره من معاصرين وقدماء، كالبيرونى، والإدريسى، وأبى الفدا.

٢ ـ فريق تنقل فى البلاد، ووصف ما رأى وعرف، مثل: التاجر سليمان، وأبى دلف، وابن جبير، وابن بطوطة.

٣ ـ فريق عنى ـ بحكم مقره أو وظيفته ـ بتدوين ما سمعه من الرحالين والتجار، وما تحويه أضابير ديوانه من معارف، أمثال: ابن خرداذبه، والجيهانى، وأبى زيد الحسن السيرافى.

٤ ـ فريق سافر إلى بعض الأصقاع، ولكنه لم يكتف بمشاهداته الشخصية بل راح يضيف إليها ما طالعه فى كتب غيره، أو سمعه فى حله وترحاله من أفواه السفار وهواة المعارف الجغرافية، ومن هؤلاء المسعودى، والبيرونى، وياقوت الحموى[1].

(١) حديث السندباد القديم. د/ حسين فوزى دار المعارف ١٩٤٣ ص٣٧

وأغرب هذه التصنيفات ـ تصنيف د/ محمد الفاسى فى مقدمة تحقيقه لكتاب «الإكسير فى فكاك الأسير»؛ إذ يقسم الرحلات إلى خمسة عشر نوعا هى:

١ ـ «الرحلات الحجازية	٢ ـ الرحلات السياحية
٣ ـ الرحلات الرسمية	٤ ـ الرحلات الدراسية
٥ ـ الرحلات الأثرية	٦ ـ الرحلات الاستكشافية
٧ ـ الرحلات الزيارية	٨ ـ الرحلات السياسية
٩ ـ الرحلات العلمية	١٠ ـ الرحلات المقامية
١١ ـ الرحلات البلدانية	١٢ ـ الرحلات الخيالية
١٣ ـ الرحلات الفهرسية	١٤ ـ الرحلات العامة
١٥ ـ الرحلات السفارية»[١]	

وواضح أن الخلط شديد فى هذا التصنيف، كما أن بعض الرحلات يفكك ويجزأ، فما الفرق ـ مثلا ـ بين الرحلات الرسمية والسياسية والسفارية؟! وما الفرق بين الرحلات الحجازية والسياحية والأثرية والاكتشافية؟! وما الفرق بين الرحلات الدراسية والاكتشافية والعلمية والفهرسية؟! يضاف إلى ذلك أن الرحلات الخيالية نوع قائم بذاته، ولا يدخل فى «أدب الرحلات». والتعريفات التى يوردها صاحب هذا التصنيف تعوزها الدقة؛ فالرحلة الحجازية ـ مثلا ـ «هى التى يضعها صاحبها بعد الرجوع من قضاء فريضة الحج»، والرحلة الأثرية هى: «التى تكون الغاية منها البحث عن الآثار ووصفها»، والرحلة الزيارية هى: «التى يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء ومشاهدهم».

وأقرب هذه التصنيفات للواقع، تصنيف د/ صلاح الدين الشامى فى كتابيه: «الرحلة: عين الجغرافيا المبصرة» و«الإسلام والفكر الجغرافى»؛ إذ يقسم الرحلة

(١) الإكسير فى فكاك الأسير: محمد بن عثمان المكناسى. تحقيق د/ محمد الفاسى .الرباط ١٩٦٥، المقدمة

إلى ستة أنواع، منها ثلاثة كانت قبل الإسلام هى:

١ ـ رحلة الحج. ٢ ـ رحلة الحرب. ٣ ـ رحلة السفارة.

وثلاثة أخرى أضافها الإسلام هى:

٤ ـ رحلة الحج. ٥- رحلة طلب العلم. ٦- رحلة التجوال والطواف[١]

ولكن ما يجب التنبيه عليه أن الجاهليين عرفوا رحلة الحج، وإن اختلفت طبيعتها عن طبيعة رحلة الحج الإسلامية.

بيد أنه يمكن إجراء بعض التعديلات على هذا التصنيف؛ ليتناسب مع الواقع، ولتنحصر الرحلة فى أنواع قليلة تضمها، فرحلة التجارة قديمة قدم البشرية، ومازالت تتطور وتطوروسائلها، حتى أصبحت أهم الرحلات التى عرفها الإنسان. والتعديل المقترح لها أن تسمى: «رحلة التجارة والعجائب»؛ حيث اقترنت الرحلة التجارية ـ المندرجة فى النطاق الزمنى لهذا البحث ـ بشىء من التضليل المتعمد رغبة فى الإبهام.

ورحلة الحرب سميت فى الإسلام: « رحلة الجهاد» والجهاد فريضة دينية على كل مسلم توفرت فيه شروط بعينها، ويشبهها فى هذا ـ إلى حد ما ـ رحلة الحج التى هى فريضة دينية أصلا؛ ولذا يمكن جمعهما فى نوع واحد هو «الرحلة الدينية».

ورحلة السفارة وليدة التقدم الحضارى، ونشوء الدول التى كانت ترسل مندوبين رسميين نيابة عنها؛ من أجل التفاوض فيما بينها، وكان هذا التفاوض يطول مجالات شتى، بل إن الدولة كانت تتبنى رحلات أخرى منظمة ـ كرحلات البريد ـ وتحوطها برعايتها، وتبسط عليها سلطانها ـ رغم أنها لم تتخذ شكل السفارة، لذلك فإن البديل المطروح «لرحلة السفارة» هو: «الرحلة الرسمية» وهو اسم أعم وأشمل من الأول.

ورحلة طلب العلم ـ أو الرحلة العلمية ـ اسم مقبول.

---

(١) الرحلة عين الجغرافيا المبصرة : د/ صلاح الدين الشامى. منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٨٢. ٩٢،٧١.

أما الرحلة الأخيرة ـ وهى رحلة التجوال والطواف ـ فلا يمكن أن تستقل بذاتها؛ لأنها مضمنة فى الرحلات السابقة جميعا، فقد يكون هذا المتجول محاربا أو تاجرا أو عالما. والذى يخرج من أجل التجول ـ كهدف ـ كان خروجه استجابة لدافع ذاتى، بيد أن هذا لم يكن ليقبل منه فى عصره، وكان عليه أن يختار نوعا من الأنواع السابقة ليندرج فى إطاره.

المحصلة: أن أنواع الرحلة العربية أربعة:

١ ـ الرحلة الرسمية.

٢ ـ رحلة التجارة والعجائب.

٣ ـ الرحلة العلمية.

٤ ـ الرحلة الدينية.

وقد يتنازع نوعان رحلة بعينها، وهنا يتم إدراجها فى النوع الذى يغلب عليها، وقد تخرج بعض الرحلات عن هذا التصنيف، بيد أن خروجها سيكون شذوذاً، والشذوذ لا يقاس عليه، ويمكن ـ حينئذ ـ وضعها فى نوع قريب منها.

obeikandl.com

الجغرافيا الوصفية.. والأدب الجغرافى.. وأدب الرحلة

الأساس فى النصوص التى يتناولها هذا البحث أنها نتاج رحلات واقعية، وأن طريقة التدوين هى التى تصنف هذه النصوص بين الجغرافيا الوصفية والأدب الجغرافى وأدب الرحلة، فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية ـ أو ندرت ـ صنف النص على أنه جغرافيا وصفية. وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات فإن عمله يصنف على أنه أدب جغرافى. أما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية فإن عمله يصنف على أنه «أدب رحلة» يتتبع خط سير الرحلة. وهذه المصطلحات الثلاثة لم يتحدد مفهومها بشكل قاطع ـ خاصة الأخيرين، وكان عدم التحديد فى صالح «الجغرافيا الوصفية» و«الأدب الجغرافى»، وعلى حساب «أدب الرحلة».

ورغم أن بعض الباحثين أدرك أن هذه المصطلحات يمكن أن تندرج فى إطار الأدب بشكل عام، فإن تناوله للنصوص التى تدخل فى هذا المجال أكد ميله نحو ربط الأدب بالجغرافيا، دون تغليب أحدهما على الآخر. يقول «كرامرز» فى مقاله بدائرة المعارف الإسلامية: «إن هذه المصنفات كلها تزودنا بمعلومات متشابهة، ولكنها ـ على الجملة أدخل فى الأدب منها فى الجغرافيا»(١). وإلى هذا الرأى نفسه ذهب د/ شوقى ضيف فى معرض حديثه عن الجغرافيين العرب الذين «أصبحت كتبهم الجغرافية كتبا أدبية، تعتمد على المشاهدة، وحكاية ما رآه الجغرافى تحت عينه، وسمعه بأذنه، وهى من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتبا جغرافية بالمعنى الذى نفهمه اليوم»(٢).

وقد أدرك «كراتشكوفسكى» الطابع المزدوج لتلك النصوص ـ واسم كتابه دليل على ذلك، فقد ميز بين «اتجاهين أساسيين فى الأدب الجغرافى العربى، فهو من ناحية يولى وجهه شطر العلوم ـ أعنى العلوم الدقيقة ـ وذلك بالمعنى الذى نفهمه حاليا إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا. ومن ناحية أخرى يولى وجهه شطر

---

(١) الجغرافيا عند المسلمين ٣٠

(٢) الرحلات . د/ شوقى ضيف، دار المعارف ١٩٧٦، ١٢.

الأدب الفنى بالغاً ببعض آثاره فى هذا المجال ذروة الإبداع»[1].

من الواضح ـ الآن ـ أن ثمة علاقة تجمع بين الأدب والجغرافيا فى هذه النصوص، إما باعتبارهما صنوين، أو باعتبار الجغرافيا فرعا من فروع الأدب الذى كان يعنى ـ عند العرب ـ الأخذ من كل شىء بطرف.

هنا يجب التأكد على أن الرحال الذى دون وقائع رحلته، كان يعتقد اعتقادا جازما أنه يكتب فى الأدب بمعناه الواسع، وهذا ما يجعل أى باحث غير متقبل لتجريد أى نص ـ سواء أكانت مسحة جغرافية تسوده أم لا ـ لتجريده من كونه أدبا.

الجغرافيا الوصفية تقف ـ فى الأغلب ـ على النقيض من أدب الرحلات، ذلك أنها تهدف إلى الوصف الجغرافى العلمى أساسا، مستخدمة منهج العلم وأسلوبه،دون أن يكون لهذا الأسلوب خصائص أدبية.. كل التركيز على توصيل المعلومات توصيلا مباشرا لا تراعى فيه النواحى الجمالية أو الذاتية.

إن الجغرافى عندما يدرس مكانا يعتبره ـ غالبا ـ جمادا، أو مادة بحث منفصلة عنه، بينما يعتبره الرحال كائنا حيا، ينفعل به ويتفاعل معه.. يربط المكان ـ وما عليه ـ بنفسه، ثم بالزمان، ليخرج لنا ـ موقفا أو «تجربة» تستحق الوصف.

إن الجغرافيا «دراسة ميدانية قبل كل شىء، وميدانها سطح الأرض، وما يتصل بسطح الأرض من معالم وظواهر، وتقتضى مثل هذه الدراسة ثلاث عمليات رئيسية هى: المشاهدة، والتسجيل، والتفسير»[2].

والجغرافيا الوصفية يشاركها أدب الرحلة فى معظم هذه العمليات، غير أن منظور كل منهما للظاهرة محل الوصف مختلف تماما.

إن كلا منهما يعتمد على الدراسة الميدانية، لكن التسجيل يفصل بين كتاب فى «أدب الرحلة»، وآخر فى «الجغرافيا الوصفية» ذلك التسجيل الذى يتأتى ـ

(١) تاريخ الأدب الجغرافى ١٨/١

(٢) الجغرافيا فى القرن العشرين. جريفيت تيلور وآخرون. ترجمة د./ محمد السيد غلاب، ومحمد مرسى القاهرة ١٩٧٤، ٧١/٢

غالبا ـ فى صورتين: «فى الصورة الأولى يكون التسجيل فى كتاب يهتم صراحة بالرحلة، ويحتوى بالفعل حديثا يتناول كل ما يحرص الكاتب على تسجيله. وفى الصورة الثانية يكون التسجيل فى كتاب جغرافى يهتم ـ صراحة ـ بالجغرافيا الوصفية، ويلتقط من حصاد الرحلة ما يناسب الصور الوصفية الجغرافية»[1].

وليس التسجيل ومنهجه ما يفرق بين أدب الرحلة والجغرافيا الوصفية فحسب، بل يتعدى ذلك ليفرق بين أدب الرحلة وكل ما عداه؛ فالخروج للصيد أو النزهة أو الغزو أو الكشف.. هذا الخروج لا يعد من أدب الرحلة ـ إلا إذا دون تدوينا أدبيا يحمل خصائص وسمات أدبية.

أما مصطلح «الأدب الجغرافى» فإنه يقدم الأدب باعتباره الأصل، ثم تأتى الجغرافيا كفرع، إنه أدب يتناول موضوعا جغرافيا من وجهة نظر أدبية تفرضها شخصية الرحال ومكوناته الثقافية السابقة.

قد يتبع كتاب «الأدب الجغرافى» النهج العلمى، ولكن بأسلوب أدبى، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، وبحيث تطل شخصية الرحال بين آن وآخر، لتقيم نوعا من التوازن بين الموضوع والذات وبحيث يتعلم القارىء ويستمتع فى آن. إنها ازدواجية تهدف إلى التقديم غير المباشر للمعلومة، أو لتخفيف حدتها وجفافها، بحيث لا يمل القارىء.

إن النص يصنف على أنه «جغرافيا وصفية» أو «أدب جغرافى» حسب موقفه من «أدب الرحلات». فما مفهوم «أدب الرحلات»؟

---

(١) الإسلام والفكر الجغرافى. د/ صلاح الدين الشامى. منشأة المعارف. الإسكندرية ١٩٧٨، ١٤١.

أدب الرحلات... المفهوم

ثمة اجتهادات لتعريف أدب الرحلات، تحتمل الصواب والخطأ، وتمثل ـ جميعا ـ خطوات تساعد على استقرار هذا المفهوم.

ورد فى «معجم المصطلحات الأدبية» أن أدب الرحلة هو: «مجموعة الآثار الأدبية التى تتناول انطباعات المؤلف عن رحلاته فى بلاد مختلفة، وقد يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق، ولتسجيل دقيق للمناظر الطبيعية التى يشاهدها، أو يسرد مراحل رحلته مرحلة مرحلة، أو يجمع بين كل هذا فى آن واحد»[1].

وعند د/ أنجيل بطرس أن «أدب الرحلات هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلات الواقعية، وهى الرحلة التى يقوم بها رحال إلى بلد من بلاد العالم، ويدون وصفا لها يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب.. وهناك صفتان عامتان لابد من توافرهما فى أدب الرحلات، وهما:

أولا: أن يكون من يكتب عن الرحلات رحالا بطبعه محبا للرحلات.

ثانيا: أن يكتب بالأسلوب الذى يجعل وصفه للرحلة يعكس روح الرحلة، والرغبة الشديدة التى تتملكه للقيام بها.

وهكذا يمكن القول بأن طرفى هذا النوع من الأدب هما: الموضوع أو الرحلة ذاتها من ناحية، وشخصية الرحال من ناحية أخرى.. ولعل خير أمثله أدب الرحلات هو ما يكشف عن شخصية الرحال، بقدر ما يقدم بنجاح وصف البلاد التى ينتقل بينها، والناس الذين يلتقى بهم.. فإذا كان الوسط الذهبى هذا، ففى أحد طرفيه توجد الأمثلة التى تقع فيها شخصية الرحال فى مركز الانتباه، وفى الطرف الآخر تقع الرحلة الجافة التى لا تحمل أثرا لشخصية صاحبها، وتفقد

1 - A Dictionary of literary Terms. Magdi wahba.Lebanon.P.577.

الشخصية المميزة، بعد أن تصبح مجموعة من الحقائق العارية من السمة الإنسانية التى تميز العمل الأدبى».[١]

ووصفت لجنة منح جوائز الدولة التشجعية الكتاب الفائز فى فرع «أدب الرحلات» عام ١٩٦٣ بأنه: «سياحة طويلة فى عالم كثير التفاوت والاختلاف والتنوع فى كل شىء، وهو كتاب متعدد الجوانب والمواضيع والشئون.. ولكن هذا التنوع كله يربط ما بينه شخصية متميزة للكاتب، فيها نوع من الأصالة فى النظر والأسلوب، ورغبة ملحة فى أن يكون كتابه صورة لذات نفسه، وتعبيرا عن انطباعات الجيل الجديد وخواطره».[٢]

وفى مجال استعراضه لأنواع المقالة الذاتية، خصص د/ محمد يوسف نجم النوع الرابع لـ«وصف الرحلات» وذهب إلى أن «قيمته متأتية من أنها تصور لنا تأثر الكاتب بعالم جديد لم يألفه والانطباعات التى تركها فى نفسه: ناسه وحيواناته ومشاهده الطبيعة وآثاره، فهى بذلك مغامرة ممتعة تقوم بها روح حساسة فى أمكنة جديدة وبين أناس لم يكن لها بهم سابق عهد.. فالرحلة إذن ليست سوى تجربة إنسانية حية يتمرس بها، ويجعل التعرف إلى دقائقها واستكناه خفاياها وكده؛ فيخرج منها أكثر فهما وأصدق ملاحظة، وأغنى ثقافة وأعمق تأملات... وشر ما يعترى هذه المقالة تدنى الكاتب إلى العاطفية المسرفة، وتكلفه المواقف التى وقفها غيره أمام المشاهد التى يستوعبها بصره وبصيرته»[٣].

وأدب الرحلات ذو قيمة عالية فيما يرى د/ محمد الفاسى، وهو نوع قائم بذاته، وأساس «هذا النوع هو شخص المؤلف وأنيته، ووصفه ما يعرض له فى سفره، وذكر الإحساسات التى يشعر بها أمام المناظر التى يمر بها، مع إطلاعنا على أحوال البلاد التى يزورها، وعلى عوائد أهلها وأخلاقهم وأفكارهم، وهو ـ فى كل هذا ـ يعبر عن نفسه وعن عواطفه، وعن وجهة نظره الخاصة فى كل

(١) الرحلة فى الأدب الإنجليزى د/ أنجيل بطرس. مقال بمجلة الهلال عدد يوليو ١٩٧٥

(٢) جوائز الدولة فى الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية. صدرت فى كتاب عام ١٩٦٥ (عن جوائز عام ١٩٦٣)

(٣) فن المقال. د/ محمد يوسف نجم. دار الثقافة. بيروت، ١٩٦٦، ص ١١

مسألة»[1].

ويستطيع الباحث المدقق ـ كما يقول د/ سيد حامد النساج ـ أن «يظفر بمئات من الكتب فى أدب الرحلات، أى ذلك النثر الذى يتخذ من الرحلة موضوعا، أو بمعنى آخر ـ الرحلة عندما تكتب فى شكل أدبى نثرى متميز، وفى لغة خاصة، ومن خلال تصور بناء فنى له ملامحه وسماته المستقلة».[2]

إن التعريفات والتعليقات السابقة لم ترد فى بحث مستقل، وإنما وردت على هيئة مقالات، أو تعليقات، أو فى مقدمات كتب. ومع ذلك فهى اجتهادات ومحاولات مشكورة، تكاد تجمع على أن أدب الرحلة يعتمد على عدة أسس، أهمها أنه:

– يقوم على رحلة ـ أو رحلات ـ واقعية فى زمان ومكان محددين.

ـ وأن الذى يقوم بها رحال تمكن حب الرحلة منه، يصف انطباعاته ومشاهداته فى هذه الرحلة.

ـ وأن الوصف يجب أن يوازن بين شخص الرحال من ناحية، والرحلة ـ كموضوع ـ من ناحية أخرى، دون التركيز على طرف واحد قد يؤدى إلى التردى فى شرك العاطفية المسرفة، أو الجفاف التام.

– ويستخدم النثر المعبر عن ذات الرحال، والحامل لخصائصه ـ دونما تكلف أو إسراف.

– مع المحافظة على بنية تكفل تماسك العمل ووحدته، ليس فرضا عليه أن يلتزم معمارا بعينه– ففى أدب الرحلات سعة ومرونة قد لا تتوفران لغيره ـ بل له أن يختار معمارا ـ ولا بأس فى أن يكون مبتكرا ـ ذا معالم واضحة يكفل تحقيق الترابط بين أجزاء العمل، من لدن البداية وحتى النهاية.

– وهو فن قائم بذاته، له أصوله وقواعده الفضفاضة، التى تتيح له قدرا كبيرا

---

(١) الإكسير فى فكاك الأسير ص أ.

(٢) أدب الرحلات فى حياتنا الثقافية. د/ سيد حامد النساج مجلة العربى. الكويت. يناير ١٩٨٧, ١٣٣.

من المرونة والقدرة على التطور والتلون حسب مقتضى كل فرد، أو عصر، أو بيئة.

- ويهدف إلى التأثير فى القارىء والتواصل معه، حيث يستمتع بكل ما فيه، وتزداد ثقافته ومعارفه بطريق غير مباشر أو محسوس.

واتكاء على تلك الأسس يمكن تعريف أدب الرحلات بأنه:

«ذلك النثر الذى يصف رحلة ـ أو رحلات ـ واقعية، قام بها رحال متميز، موازنا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارىء والتأثير فيه».

وفيما يلى تفصيل لهذا التعريف:

إن كل النصوص التى وصفت الرحلات بشكل أساسى ـ بحيث تمثل الرحلة الموضوع الرئيسى ـ استخدمت النثر، لما له من مميزات لا تتوافر لنظيره: الشعر. ورغم أن الشاعر قد يصف رحلة أحيانا، فإن عمله يكون عارضا، وربما خياليا. إن النثر يتيح للرحال حرية الوصف والحركة دون قيود أو معوقات، لذا فإن استخدامه يصبح مبررا بل ضروريا، كما أن النثر أداة تواصل بين الشعوب- عكس الشعر الذى يفقد أهم خصائصه حين يترجم... قيمة النثر فى الأفكار التى يحملها، وقيمة الشعر فى كيفية أدائه.

والرحال يصف رحلة ـ أو رحلات ـ واقعية، وشرط الواقعية هذا أهم ما يميز أدب الرحلة عن غيره من الأنواع الأدبية. والرحلة الواقعية معناها أنها حدثت بالفعل، فلا مجال للحديث عن رحلات ممكنة أو مستحيلة، إنها رحلات حقيقية بكل تفاصيلها، وفى إطارها العام. أما الرحلات الخيالية الصرف ـ تلك التى لم يقم بها مؤلفها فعلا ـ فلا تدخل فى مجال أدب الرحلات مهما استند مؤلفوها إلى حقائق ووقائع نقلت إليهم، ومن أمثلة تلك الرحلات: «التوابع والزوابع» -لابن شهيد، و «رسالة الغفران» لأبى العلاء المعرى.

لكن.. أدب الرحلة عمل فنى، والمتوقع أن يمتزج فيه الواقع بالخيال، بيد أن

دور الخيال يكون ضئيلا، وله وظائف محددة.

إن أدب الرحلات ـ بناء على ذلك المزج بين الواقع والخيال ـ يقوم على أسس ثلاثة هامة:

١ ـ «تشكل الرحلة الواقعية المعاشة نواة المؤلف الأدبى.

٢ ـ يضاف إلى ذلك المؤثرات السابقة (كالقراءات السابقة فى كتب الرحلات، والخبرات السابقة).

٣ ـ وبالإضافة إلى ذلك لا يجب إهمال دور الخيال».[١]

غير أن الخيال يقوم «فى هذه الظروف بوظيفتين مختلفتين (ومحددتين):

١ ـ وظيفة الاختراع أو الابتكار الانتقالى الذى يساعد على سد نقص وفراغات الذاكرة.

٢ ـ عملية تحريف الذكرى، وهى إما إرادية ـ خاصة حينما يحذف الكاتب عمدا بعض التفاصيل خشية الفضيحة، أو رغبة منه فى تقديم صورة مثالية لذاته، وإما لا إرادية ـ حينما يعتقد أنه يقص ـ فعلا ـ حقيقة جربها».[٢] وفرق كبير بين أن يجمع الرحال بين الخيال والواقع بالمعنى السابق، وأن يجمع بين الواقع وما لا يقبله عقل.

وهذه الرحلات يقوم بها رحال متميز، وهذا الرحال يمكن التعرف عليه من خلال النماذج المشرقة للرحالة، يضاف إلى ذلك بعض التعريفات التى وردت على لسان الرحالين أنفسهم أحيانا، أو فى كتابات نقدية فى أحيان أخرى.

هذا الرحال ـ كما تقترح ـ إيلاميلارت «إنسان مدفوع للحركة لأسباب: طبيعية، وجمالية، وعقلية ـ إضافة إلى الأسباب الروحية»[٣]. وهذا التعريف يؤكد على أن ثمة أسبابا تدفع للرحيل دفعا غير مباشر، وقد تكون مجموعة

(١) الرحلة بين الواقع والخيال فى أدب أندريه جيد. د/ نادية محمود عبد الله، عالم الفكر. الكويت. عدد يناير ١٩٨٣، ١١٨.

(٢) الرحلة بين الواقع والخيال فى أدب أندريه جيد ص ١٢٠

3 - Travel Quest. P.117.

تراكمات مختزنة تتفجر أو تطفو على السطح فى وقت معين، فتكون بمثابة شرارة انطلاق الرحلة.

وقد عرف باحث هذا الرحال تعريفين: أحدهما فى شبابه، والآخر بعد خبرة، فقد اقترح فى شبابه تعريف الرحال بأنه: خليط من العاشق والمتشرد، ثم عاد ليصفه بأنه: «إنسان ينطلق ـ فى المقام الأول ـ بحثا عن أشياء، سواء أكانت محددة أو غير محددة. ولديه وجوبا هدف واقعى، أو ـ بدقة ـ شوق غامض. ولكن رحلته غاية لذاتها. وفى رحلته يجب أن يستمتع بالحرية المطلقة والاستقلال التام. والوسيلة المثلى لتحقيق ذلك هى عدم التخطيط لرحلاته لأكثر من أن يوجهه هدف غامض. إنه يجب أن يقول: سوف أذهب إلى «س» وسأرى كل «ما» أجد هناك، أيا كانت «ما» تعنى»[1].

من الواضح أن التعريف الأول قاصر إلى حد كبير، رغم أنه يلمح صفة ضرورية يجب توفرها فى الرحال، وهى وجوب كونه عاشقا لما يفعل، ولولا هذا الاقتناع الداخلى بجدوى ما يفعل لأصبحت حركته ضربا من التخبط الذى لا طائل وراءه، أما أن الرحال متشرد، فذلك مالم يخطر ببال أحد. أما التعريف الثانى فيؤكد على أن الحركة أساس الرحلة، وعلى وجوب وجود هدف واقعى يمكن تحقيقه، وعلى أن دافع الرحلة يجب ألا يكون مباشرا، وإنما هو ـ فى الغالب ـ شوق غامض وحنين ضاغط من أجل الرحلة، وأن الرحلة تنطوى ـ فيما تنطوى ـ على تحطيم كل معتاد رتيب.. إنها نوع جديد من الحياة بلا قيود، لذا فإن الاستقلال والحرية والفردية ـ أحيانا ـ أمور يجب توافرها، وعدم التخطيط التفصيلى هو الوسيلة الكفيلة بتحقيق ذلك.. يكفى أن يقول الرحال إننى سوف أذهب إلى الهند ـ مثلا ـ ولكن تفاصيل الرحلة فى الهند ينبغى أن تظل مجهولة، وأن تترك لحينها.

إن الرحال الحقيقى إنسان توفرت فيه صفات عديدة لم تستغل، إنها تحتاج إما لإزالة الغبار عنها، أو لصقلها. وفى الحالتين كلتيهما يجب أن يتوفر حد أدنى

1 -Ibid .

من هذه الصفات كى نحكم لهذا الرحال بأنه صالح، أو من الممكن أن يصلح. والحد الأدنى من هذه الصفات أن يكون حاويا لروح الفنان؛ لأن الفنان رحال متميز وناجح، ورحلته ـ فى الغالب ـ منزهة عن الغرض النفعى.

إن هذا الشوق الغامض ـ عند الرحال الحق ـ «رغبة مستحكمة، ونفس أمارة، ولذة نادرة ينسى فى سبيلها المشاق والأهوال»[1] .

وهو ـ عند ابن حوقل ـ «ما كنت أحسه فى نفسى بالقوة على الأسفار وركوب الأخطار، ومحبة تصوير المدن»[2] . وهذا الشوق نجده عند المسعودى وأبى دلف والمقدسى، وغيرهم ـ وإن اتخذ أسماء مختلفة.

إن هذا الشوق عامل إيجابى فى كل أحواله، وقد يؤدى ـ أحيانا إلى نتائج عكسية وسلبية، إنه يسبب الإحساس بالخوف والقلق، ولكنه مع ذلك إيجابى؛ لأنه يرسخ فى نفس الرحال روح الباحث، وما الباحث «إلا اسم آخر للرحال؛ إذ الرحال الحق يود أن يرحل دوما، حتى لا يكون هناك ما يبحث عنه»[3] .

ومن الملائم ـ فى هذا المقام ـ الإشادة بتجربة رحال عربى كبير، لم ينل القدر الواجب من التقدير، تلك التجربة التى لخصها صاحبها فى نص نفيس ومركز ترجم ـ مفردا ـ إلى عدة لغات عالمية. إن «المقدسى» فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» يتحدث عن نفسه ـ بفخر ـ بضمير المتكلمين «نحن» مؤكدا أنه:

«لم يبق إقليم إلا وقد دخلناه، وأقل سبب إلا وقد عرفناه، وما تركنا ـ مع ذلك ـ البحث والسؤال والنظر فى الغيب.. وما بقيت خزانة ملك إلا وقد عرفتها، ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم، ولا مذكرو بلد إلا وقد شهدتهم؛ حتى استقام لى ما ابتغيته فى هذا الباب.

ولقد سميت بستة وثلاثين اسما دعيت وخوطبت بها مثل: مقدسى،

---

(١) حديث السندباد القديم ٢٦٠.

(٢) صورة الأرض ابن حوقل تحقيق كراموس ليدن، ط ١٩٦٧. ص ٣٢٩

3 - Travel Quest. P. 125.

وفلسطينى، ومصرى، ومغربى، وخراسانى، وسلمى، ومقرئ، وفقيه، وصوفى، وولى، وعابد، وزاهد، وسياح، ووراق، ومجلد، وتاجر، ومذكر، وإمام، ومؤذن، وخطيب، وغريب، وعراقى، وبغدادى، وشامى، وحنيفى، ومتأدب، وراكب، ورسول ـ وذلك لاختلاف البلدان التى حللتها، وكثرة المواضع التى دخلتها.

ثم إنه لم يبق شىء مما يلحق المسافرين إلا وقد أخذت منه نصيبا ـ غير الكدية وركوب الكبيرة؛ فقد تفقهت ، وتأدبت، وتزهدت، وتعبدت، وفقهت، وأدبت. وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت فى المساجد، وذكرت فى الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت فى المعاقل، وتكلمت فى المجالس.

وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتى العصائد. وطردت فى الليالى من المساجد، وسحت فى البوادى، وتهت فى الصحارى. وصدقت فى الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا، وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت ـ حينا ـ السلطان، وملكت العبيد، وحملت على رأسى بالزنبيل. وأشرفت ـ مرارا ـ على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبرا، وخاطبت السلاطين والوزرا، وصاحبت فى الطرق الفساق، وبعت البضائع فى الأسواق.

وسجنت فى الحبوس، وأُخذت على أنى جاسوس، وعاينت حرب الروم فى الشوانى، وضرب النواقيس فى الليالى. وجلدت المصاحف بالكرا، واشتريت الماء بالغلا، وركبت الكنائس والخيول، ومشيت فى السمائم والثلوج، ونزلت فى عرصة الملوك بين الأجلة، وسكنت بين الجهال فى محلة الحاكة، وكم نلت العزة والرفعة، ودبر فى قتلى غير مرة.

وحججت وجاورت، وغزوت ورابطت. وشربت بمكة من السقاية السويق، وأكلت الخبز والجلبان بالسيق، ومن ضيافة إبراهيم الخليل، وجميز عسقلان السبيل.

وكسيت خلع الملوك، وأمروا لى بالصلات، وعريت وافتقرت مرات، وكاتبنى السادات، ووبخنى الأشراف، وعرضت على الأوقاف، وخضعت للأخلاف،

ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع. وأقامنى الأمراء والقضاة أمينا، ودخلت فى الوصايا، وجعلت وكيلا، وامتحنت الطرارين ،ورأيت دولة العيارين. واتبعنى الأرذلون، وعاندنى الحاسدون، وسعى بى إلى السلاطين.

ودخلت حمامات طبرية، والقلاع الفارسية، ورأيت يوم الفوارة، وعيد بربارة، وبئر بضاعة، وقصر يعقوب وضياعه. ومثل هذا كثير.

ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر فى كتابنا أنا لم نصنفه جزافا، ولا رتبناه مجازا، ويميزه من غيره؛ فكم بين من قاسى هذه الأسباب، وبين من صنف كتابه فى الرفاهية، ووضعه على السماع.

ولقد ذهب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم، سوى ما دخل على من التقصير فى أمور الشريعة، ولم يبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها: قد مسحت على القدمين، وصليت بـ«مدهامتان» ونفرت قبل الزوال، وصليت الفريضة على الدواب، ومع نجاسة فاحشة على الثياب، وترك التسبيح فى الركوع والسجود، وسجود السهو قبل التسليم، وجمعت بين الصلوات، وقصرت لا فى سفر الطاعات.. غير أنى لم أخرج عن قول الفقهاء الأئمة، ولم أؤخر صلاة عن وقتها بتة، وما سرت فى جادة وبينى وبين مدينة عشرة فراسخ فما دونها إلا فارقت القافلة، وانفلت إليها لأنظرها قديما.

وربما اكتريت رجالا يصحبوننى، وجعلت مسيرى فى الليل؛ لأرجع إلى رفقائى، مع إضاعة المال والهم»،[1] إن هذا النص يرسم صورة مشرقة للرحال النموذجى طراز القرن الرابع الهجرى، إنه غنى بالدلالات والإيحاءات، ويقف دليلا على فطنة الرحالة العرب ومدى فهمهم لطبيعة الرحلة ومستلزماتها.

أما إطار أدب الرحلة فهو إطار مرن، يساعد على تحديده المضمون، والصلة بينهما ـ بين الشكل والمضمون- جلية، فالمضمون يتحكم فى الشكل ويوجهه، والشكل المختار يفرض على الرحال نهجا لابد من التزامه.

وباعتبارهما صنوين يشاركان فى تكوين الصورة النهائية لأدب الرحلة، فإنه

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . «المقدسى». تحقيق دى خويه. ليدن ط ١٩٦٧ ص٤٣ ـ ٤٥

من الضرورى التنبيه على أن شخص الرحال ـ بكل مكوناته ومقوماته ـ يتحكم فيهما، ويخرجهما على مثال فريد لم يسبق إليه، باعتباره إنسانا متميزا وفريدا. ولا أدل على ذلك من تفرد كل رحلة بشخصية مستقلة؛ لأن الذى قام بها إنسان متميز، فى مكان متميز. وفى زمان متميز، وفى ظروف خاصة. وليس معنى التميز الأفضلية، بل يعنى الاختلاف والتفرد.

لقد كانت هذه الشخصية المستقلة سببا فى ثراء أدب الرحلة من حيث المضمون والشكل، مما فرض على كل من تعرضوا لهذا النوع بالدراسة أن ينبهوا على ذلك، وعلى أن محاولاتهم ما هى إلا اجتهادات، وكان هذا السلوك إدراكا حقيقيا منهم لطبيعة هذا النوع، كذلك أدركو أن الكتابة فى هذا النوع صعبة، فصاحب «معجم مصطلحات الأدب» يسلم بأن الرحلات «دونت بأساليب مختلفة، مما أوضح أنه ليس هناك دليل على سهولة التناول»[1] . وباحث آخر يذهب إلى أن هذا النوع «من الأدب صعب التناول، رغم أنه شائق لدى القارىء، وهو ليس سهلا ولا هينا، ولكنه فن صعب للغاية»[2] . إن طبيعة الرحلة المتحررة، ومضامينها المتجددة دوما، أثرت على شكلها بالسلب؛ فلم يتفق الرحالون ـ أو النقاد ـ على شكل معين ـ فضلا عن مضمون معين ـ يمكن احتذاؤه، ومن هنا فإن كل محاولة لدراسةهذا النوع الأدبى لابد أن تصطدم بعقبة «عدم الانضباط المنهجى» ولابد أن تعترف بها؛ لأن الزعم بغير ذلك ينطوى على عدم فهم حقيقى لهذا النوع.

---

1 - A Dictionary of literary terms. J. A Cuddon. New yok 1977.P.702

(٢) أنيس منصور، حياته وأدبه، تأليف: مأمون غريب. المكتبة العصرية. بيروت. د. ت. ص ٢٢

الخصائص المميزة للمضمون

أدب الرحلة وعاء لكل مضمون، وهو لا يفرق بين مضمون خسيس وآخر شريف، أو بين مضمون مهم وآخر تافه. كل مضمون قابل للتدوين طالما قبله ذوق الرحال واقتنع به؛ وعليه.. يمكن القول بأن مضمون الرحلة هو مضمون الحياة، غير أن طوابع مضمونية بعينها يكاد الرحالون يجمعون عليها، قد تستوفى جميعها فى عمل واحد، وقد يتناول بعضها دون بعض، بينما يركز رحالون على واحد منها. وهذه الطوابع هى:

١ ـ الطابع الموسوعى والمعرفى.

٢ ـ الطابع الوثائقى.

٣ ـ الطابع الكشفى.

٤ ـ الطابع الفردى.

٥ ـ الطابع الإنسانى.

٦ ـ الطابع الشعبى.

٧ ـ الطابع الجمالى.

٨ ـ الطابع النقدى.

٩ ـ الطابع الفكاهى.

الطابع الموسوعى:

يعطى للرحال حرية، وهو قيد فى الوقت ذاته، ذلك أنه يحتم عليه الاختيار الدقيق الذى يضمن دوام التواصل مع القارىء، وهنا تكمن صعوبة الكتابة فى أدب الرحلات. يخطىء من يظن أن نجاحه مرهون بأن يستغرق القارىء معه فى «لحظة استرخاء لذيذة بين انطباعات فنية ناقصة» ينبهر بها، ثم ما يلبث أن ينساها، دون أن تترك أثرا يذكر، ويصيب من يظن أن نجاحه مرهون باحترامه

لقارئه، ومن ثم احترام قارئه له، وتأثره بعمله. ليست «الموسوعية» ميزة على إطلاقها، بل هى ميزة إذا أحسن استغلالها، أما إذا أسيء استغلالها فإنها تورث العمل هلهلة وتفككا واستخفافا يكفل انصراف القارئ عنه. والطابع الموسوعى هو طابع معرفى فى الوقت ذاته، غير أن رحالا بعينه قد يتراءى له أن يركز على فروع علمية بعينها، يؤديه إليها تخصصه وخبراته السابقة، وحينئذ يجب عليه أن يعى أنه يقدم كتاب رحلة ـ فى الأساس، يتضمن معلومات فى فرع بعينه فحسب. وهذا الوعى لابد أن يترجم ترجمة عملية إبان التدوين. حتى لوطغى الجانب العلمى المعرفى على الجانب الأدبى الذاتى، لأن الطابع الموسوعى يكفل ـ حينئذ ـ ضم العمل إلى حظيرة الأدب، طالما كان أساس الكتاب رحلة قام بها رحال متميز. غاية ما فى الأمر أنه أخفق فى تصور الطريقة التى يمكن بها أن يخرج عمله. وهذا الافتراض يحل كثيرا من المشكلات التى تعترض دارس «أدب الرحلات». ولا يمكن تصور كتاب فى أدب الرحلة لا يقدم معرفة، أولا يضيف جديدا. وحقا قال أحد الرحالين: «إذا لم تضف الرحلات إلى قائمة المعرفة البشرية، فإنها تصبح عادة ضارة».

والرحلة **وثيقة** يمكن الركون إليها، لأنها:

- محددة الزمان والمكان.
- واقعية، ذات أهداف ونتائج.
- معروفة المؤلف.

إنها يمكن أن تعد «شهادة على العصر» الذى عاشه المؤلف، شاملة كافة جوانبه ومحتوياته، يحركها هدف نبيل.

وفى حال النماذج الرفيعة من أدب الرحلات تكون المساهمة فى رسم لوحة عامة صادقة للجنس البشرى ـ قوية، وليس أفضل من الرحال المنزه عن الغرض لرسم تلك اللوحة الخاصة بعصره الذى عاشه. والرحلة وثيقة حية، ونتاج معاينة ومعاناة، وفوق ذلك يمكن اعتبارها نتاج أذواق منقحة، ولذا فإن الاعتماد عليها

مبرر. من ثم يعتبر «أدب الرحلات ـ إلى جانب قيمته الترفيهية والأدبية أحيانا ـ مصدرا هاما للدراسات التاريخية المقارنة، وذلك خاصة بالنسبة للعصور الوسطى، كما أن علماء الأدب المقارن اعتبروه قسما من أقسام الأدب فى تصنيفه الحديث»[1].

إن إدراك الرحالين للطابع الوثائقى لرحلاتهم، جعلهم يزودون كتبهم بكل ما يؤكد هذا الجانب، كالخرائط ، والإحصاءات، والتواريخ الدقيقة، والحوادث، والتفصيلات الصغيرة، وفى عصرنا لا يكاد كتاب فى أدب الرحلات يخلو من صور «فوتوغرافية» للرحال فى أماكن ومواقف مختلفة، وكأنه يريد أن يثبت ـ بدليل قاطع ـ أنه قام برحلته فعلا.

والرحلة ذات طابع فردى ذاتى:

لأن الكشف الخارجى الحقيقى لا يتأتى إلا بعد الكشف الداخلى. إن رحالا لن يصل إلى حقيقة يعتد بها إلا إذا عرف حقيقة نفسه أولا.

إن حرية الاختيار والتوجه، والاعتماد على الذات فى توفير نفقات الرحلة، والسعى لمواجهة الصعاب، والتخلص من المآزق، والتجريب والاستقصاء، كل ذلك سيساعد على اكتشاف الذات، فالرحلة ـ كما يقول أحد الرحالين ـ «إحدى صور تأكيده لذاته فى مواجهة الناس».

وقد تتضخم هذه الذات، بحيث لا يسعها مكان أو زمان، ويصبح ديدنها الرحيل الدائم من أجل تدعيم هذه الذاتية، ولذلك ليس غريبا أن يدعو «أندريه جيد» إلى أن نقاوم ـ بالرحيل ـ كل القوى الغاشمة التى تحاول أن تستعبدنا، وذلك بمحاولة التأقلم المستمر عن طريق الانسلاخ الدائم.. إن كل رسوخ هولون من التقوقع والجمود، وإن كل استقرار هو تفاهة وانحدار»[2].

إن الفردية والذاتيةلا تعنى أن يكون الرحال شاذا فى تصرفاته، بحيث يبدو غريبا دوما. إنما النصيحة التى يسديها كبار الرحالة أن عليه أن يتصرف كما يتصرف

---

1 - A Dictionary of Literary terms. P. 577.

(٢) عالم الفكر ـ مرجع سابق ، ٩٦.

أهل البلاد التى يحل بها، وأن يختلط بهم، ويتعرف عليهم، حتى يتيح له ذلك فرصة للحكم الدقيق. إن الرحال قد يفلح فى استكناه حقيقة ذاته، ولكن هذا لن يتأتى ـ عمليا ـ إلا حين يدون رحلته وينشرها: إذا أفلح فى هذا الاستكناه ـ نظريا وعمليا ـ فإن عمله يصبح وثيقة نفسية رائعة، يمكن الاتكاء عليها فى استنباط الحقائق عن النفس البشرية التى يمثل الرحال أحد نماذجها البارزة، والنماذج الرفيعة من هذه الوثائق النفسية تكتسب صفة الخلود، لأنها سترتفع عن كونها ذات طابع فردى خاص، لتصبح ذات طابع إنسانى عام.

ومن صور تأكيد هذه الذاتية الاعتداد بالتجارب والمواقف التى خاضها الرحال أثناء رحلته، واعتبارها شيئا طريفا جديرا بالتسجيل والذيوع.

إن الرحال قد كابد من المصاعب والمشاق الكثير، وقد يكون الاعتداد بتجاربه وتسجيلها نوعا من التعويض عن هذه المصاعب ومن ثم فإنه لا تثريب عليه. ومن حق الرحال ـ أيضا ـ أن يذكر التفاصيل الدقيقة الخاصة به أثناء الرحلة، وأيا كانت هذه التفاصيل خاصة به وبعصره، فإنها لن تخلو ـ بحال ـ من دلالة، ولا حاجة للتأكيد على أن أفضل أجزاء الرحلة هى تلك التى تصف نفس الرحال وتستبطن ذاته، وأنها أكثر أجزائها جذبا للقارىء وتأثيرا فيه، وأن الاستخدام الذكى لها يكفل صبغ الرحلة بصبغة أدبية فنية متميزة.

والطابع الكشفى:

يتأتى باستغلال الرحال لبصره ومصيرته، وصولا إلى الحكمة التى تؤهله لأن يطلق عليه لقب «الخبير أو المجرب».

إن استنفار حواس الرحال جميعا لابد أن يكون فى حالته القصوى توطئة للكشف الذى يتأتى: بعد طول روية وتأمل، أو فجأة ويكون هذا الكشف داخليا أو خارجيا: تجلية لما صدأ، أو كشفا عن جديد.

والكشف الذى يوثق فيه هو ذلك الكشف الناتج عن التأمل، والتأمل يتم أثناء الرحلة ـ خاصة فى حالات التوقف الجبرى ـ أو بعد انتهائها، فى لحظات

الاسترجاع والاستعراض العام لوقائعها.

وما يميز كشف الرحال عن كشف الفنان، أن الأول نتاج حركة عملية وذهنية، أما الثانى فنتاج حركة ذهنية وحسب ـ فى الغالب، ونسبة الخطأ عند الثانى أكبر منها عند الأول، وأن كشف الرحال يقدم فى صورة مباشرة تدرك بسهولة، أما كشف الثانى ـ الفنان ـ فيقدم فى صورة محورة، تحتاج إلى إعادة كشف.

الطابع الإنسانى:

الرحال إنسان، يصف الإنسان وما يتعلق به، ويوجه وصفه إلى إنسان. وبين هذه المحاور الثلاثة يبدو الطابع الإنسانى للرحلة جليا.

اقتناع الرحال بأنه فرد فى مجموع، وجزء من كل، سيؤدى به إلى الالتفات إلى هذا المجموع محاولا الكشف عنه فى حال كونه كلا. هذا الالتفات للمجموع يؤكد على الطابع الإنسانى للرحلة فالرحال يصف الإنسان ـ هدفه الأول ـ من حيث الصفات العامة والخاصة، ومن حيث الاتفاق والاختلاف بين شتى أجناسه.

من هذا المنطلق كانت رغبتى الأكيدة ـ يقول رحال ـ «يوم أن بدأت جولاتى فى ربوع الدنيا أن أدرس شعوب العالم، وأتدسس إلى الصميم من حياتهم، لأخلص إلى ما يسود بينهم من الأخلاق والعادات. وقد كنت أصدر ـ عقب كل جولة ـ كتابا يضم مشاهداتى فى البلاد التى زرتها... ولعلهم ـ يعنى الرحالين ـ يحرصون على تدوين مذكرات ينشرونها بعد عودتهم، حتى نستطيع ـ بجولاتهم وجولاتى ـ أن نزف إلى أبناء هذا الوطن بلغته العربية «كتاب الدنيا» يطالعون فيه أحوال شعوب تقدمت ركب الأمم وأخرى تخلفت، وعسى أن يكون لنا من هذه أحسن العبر ومن تلك أجمل الأثر»[1].

ولكن.. كيف كان الرحالون القدماء يصفون الإنسان فى صورته الفردية، أو

(١) جولة فى ربوع الشرق الأدنى .محمد ثابت. النهضة المصرية. ١٩٥٢/ ٣

الشعوب في صورتها الجمعية؟ لقد ركز الرحالون على عدة جوانب، منها الجانب الخلقي والخلقي، وكذا اهتموا بصفاته العقلية، والنفسية، ونصوا على دياناته ومعتقداته، كما اهتموا بوصف لغته، وتوضيح مميزاته وخصائصه الفارقة ـ قياسا إلى غيره ـ وكان للعادات والتقاليد النصيب الأوفر من ذلك الاهتمام. إن وصف أى شعب يحوى هذه الجوانب ـ أو أغلبها، وللرحال أن يضيف ماشاء حسب ذوقه، وهذا ما فعله المقدسى حين أوضح ما سيصف فى الأقاليم الإسلامية قائلا: «فرأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وأنفرد بفن لم يذكروه إلا على الإخلال، وهو «ذكر الأقاليم الإسلامية» وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلد فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم، ومكاييلهم، وأوزانهم، ونقودهم، وصروفهم، وصفة طعامهم، وشرابهم، وثمارهم، ومياههم، ومعرفة مفاخرهم، وعيوبهم..»[1].

الطابع الشعبى:

يترتب على كون الرحلة تصف شعوبا أنها ذات طابع شعبى، وهذا الطابع مزدوج، بمعنى أنه يصف شعوبا، وهو موجه إليها ومراع لها.

لقد تم التأكيد على ضرورة أن يضع الكاتب فى اعتباره أن عمله موجه إلى جمهور أو شعب، ومن ثم فعليه مراعاة اعتقاد هذا الجمهور ـ ورحلة تتجاهل هذا الجمهور، هى رحلة لم يستفد منها صاحبها شيئا. إن العجائب والخرافات والأساطير التى شحنت بها كتب الرحلات هى استجابة لمطالب جماهيرية ضاغطة، ووصف الشعوب الأخرى هو استجابة لمطالب شعبية ترغب فى معرفة كل شىء عن غيرها ـ إن لم تكن المعرفة مباشرة، فلتكن بواسطة آخرين.

بعد توفر كم هائل من المعلومات التى يراعى فى إيرادها أن تكون موجهة للعامة، شرع هؤلاء الأخيرون فى تأليف قصص شعبى يعتمد عليها فى المقام

(١) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ١ ـ ٢

الأول، ويحاول تضمينها فى إطار فنى بحيث لا يبين مصدرها، غير أن البحث المدقق يظهر حقيقة مصدرهم. وليس غريبا ـ بعد ذلك ـ أن يعلن أحد الباحثين أنه «ليس فى رحلات السندباد وغيرها إلا القليل لم أجد له أصلا أو مقابلا فيما فحصته من كتب الجغرافيا العربية أو كتب العجائب»[١].

لقدأدرك الباحثون هذا الطابع الشعبى لأدب الرحلة، وشرعوا فى استخلاصه من النماذج المميزة، واقترح بعضهم مناهج محددة لكيفية استخلاصه[٢]، بينما حرص آخرون على تأكيده.

الطابع الجمالى:

الجمال الذى يخرج من أجله الرحال موضوعه «متعة لا غاية لها، ولا علاقة لها بالمنفعة الحسية ـ كما هو الشأن فى اللذيذ ولا بالمصلحة الخلقية كما هو الشأن فى الخير. وتلك المتعة أساس حكم ذاتى ابتداء، ولكنه عالمى نتيجة... كما أن هذه العالمية فى الحكم الجمالى لا تستند إلى قاعدة»[٣].

وهذا الجمال مصادره متعددة، وجوانبه كثيرة، وذوق الرحال ـ المهذب ـ هو الذى يحدد كون الشىء جميلا من عدمه. حتى لو كان ذلك موضع خلاف مع الآخرين.

وسبيل الإحساس بالجمال الإدراك، ولا بد معه ـ كما يرى ديدرو ـ من «الحميا الفنية التى بدونها لا عبقرية فى الفن. وهذه الحميا تستلزم رهف الإحساس وقوة العاطفة»[٤]. إن الحميا الفنية ترافق الرحال دوما، بسبب طبيعة المهمة التى يقوم بها؛ إذ تكون حواسه جميعا مستنفرة، وعلى أهبة لتلقى ما

---

(١) حديث السندباد القديم ٢٦٥

(٢) انظر هذه الاتجاهات الثلاثة بالترتيب: رسالة ابن فضلان فى وصف رحلته فوزى العنتيل. تراث الإنسانية ١١٣/٨ ـ ١٣٦ ،و التراث الشعبى فى أدب الرحلات. د/ حسين فهيم. مجلة المأثورات الشعبية. الدوحة يناير ١٩٨٧ ٧٤ ـ ٨٣، والرحلات د/ شوقى ضيف، ١٢، وتاريخ الأدب الجغرافى ٢٥/١

(٣) النقد الأدبى الحديث. د/ محمد غنيم هلال. دار مطابع الشعب ١٩٦٤/ ٣٠٨

(٤) نفسه ٣٠٢

كان ممتعا أو مفيدا.

ومن بين الجوانب الجمالية المتعددة، ينجذب الرحالون إلى جمال الطبيعة خاصة، يأسر هذا الجمال لبهم، فيقفون أمامه طويلا، محاولين إقامة جسور وعلاقات بينهم وبينه، وصولا إلى إجراء حوار - بلا كلمات - يفضى كل - فيه - بمكنونات نفسه. وليكن معلوما أن «الذى يشكل جاذبية وفتنة المكان الآخر - وهو ما نسميه بالبرانية - ليس مرتبطا بكون الطبيعة أكثر جمالا، ولكنه يعود إلى أن كل شيء يبدو لنا جديدا، وأنه يفاجئنا، يتجلى لنا ظريفا فى ثوب من البكارة. إنها ليست «الأوراق الأعرض» بقدر ما هو «الشذا الذى لم يختبر»[1].

غير أن ما يجب التنبيه عليه أن وصف الرحال مهما كان معبرا، ومهما سكب عليه من نفسه وإحساسه - لا يغنى - بحال - عن مباشرة هذا الجمال كضرورة. إن مناظر بعينها لا تفلح الكلمات أو الصور فى نقلها، أو - على الأقل فى نقل جوانبها كافة، ومن ثم لن يكون وصف الرحال سوى دعوة للقارىء لأن يكتشف ويعاين جمال الكون بنفسه. لا يستطيع «أحد أن يصوغ فى كلمات انعكاس الضوء على سطح البحر، أو بزوغ الشمس، أو جمال أجنحة البط البرى، لكى نحصل على نصيبنا كاملا: لابد أن نعاينه بأنفسنا»[2].

مطلوب من الرحال أن يكون مستعدا دوما لأن يرى جميلا، وحينئذ تبلغ روحه درجة عالية من السمو الذى يؤدى به إلى الكشف الحقيقى.

الطابع النقدى:

لعل من أهم ما يجب أن يتحلى به الرحال امتلاك روح الناقد البصير المحايد، وإذا لم تكن هذه الروح كامنة فيه قبل تحركه، فإن الرحلة كفيلة ببثها فى نفسه.

---

(١) عالم الفكر، مرجع سابق ١٠١.

2- Travel Quest.P.11.

والحكم النقدى الصادر عن الرحال ينتج عن تفاعل صحى بين خبرتين هما:

١ ـ الخبرة السابقة (وتتمثل فى كل ما اكتسبه الرحال قبل خروجه).

٢ ـ الخبرة المضافة (وتتمثل فى كل ما اكتسبه الرحال من لدن شروعه فى الخروج).

وقد يكون هذا الحكم انطباعيا أو موضوعيا، أو ـ بعبارة أخرى ـ آنيا أو متأملا، ولكل حكم رصيده من الأهمية والمصداقية والدلالة على توجهات الرحال.

إن ما يميز الرحال الحق عن المزيف كونه مستطيعا نقد ما يرى، هو لا يكتفى بالمشاهدة والوصف، ولكنه يتعداهما إلى التفسير والنقد، وقد أدرك الرحالة القدماء هذا الطابع المزدوج؛ لذا جاءت كتاباتهم ـ فى الأغلب ـ سجلا وافيا وعميقا عن انطباعاتهم عن حياة الشعوب التى زاروها، ومظاهر سلوكهم وعوائدهم وتقاليدهم، ونظمهم الاجتماعية والسياسية، وتقويما لإنجازاتهم فى مختلف ميادين الثقافة، ولم تكن مجرد سرد وصفى لتفاصيل الرحلة والأحداث العابرة التى مرت بهم أثناء ذلك»[1]. غير أن الحياد النسبى يجب أن يكون ماثلا أمام الرحال دوما، بحيث لا يتردى إلى شرك التحيز الضار الذى وقع فيه قدماء ومحدثون. وقد وقع أوربيون محدثون كثيرون فى هذا الشرك؛ لذلك فإن «المعرفة الغربية عن الشرق ـ من خلال المستشرقين وأتباعهم من الرحالة والجواسيس... ظلت معرفة «للآخر» الدونى أو الأدنى، الشاذ وليس المختلف، وكنا ـ نحن هو هذا الآخر. ولكن كاتب الرؤية يجعل من نفسه ـ فى الوقت ذاته ـ نوعا من «الآخر» الأعلى الأرقى الطبيعى، الذى يجب على «الآخر» الأول الأدنى الشاذ ـ الذى هو نحن ـ أن يقلد رقى الأعلى وسمو الأرقى، كانوا جميعا يشعرون بأنهم «دهاة» رحلوا وسط متخلفين بلهاء، والدليل: أنهم جميعا خدعوا العرب، ووصلوا إلى كعبتهم، أو إلى حريمهم أو إلى غلمانهم.. إلخ، بمجرد أن ارتدى

(١) عالم الفكر، مرجع سابق، ١٠ مقال د/ أحمد أبو زيد

بمجرد أن ارتدى كل منهم زيا عربيا:»[1].

والفرق واضح بين الرحالين المسلمين والرحالين الغربيين فى هذا الصدد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن كثيرا من الرحالة العرب تمتعوا بالروح النقدى القائم على الخبرة الواسعة، رغم تفاوتهم فى الدرجة، وكان أهم مجال طبقوا فيه ذلك الروح النقدى المقارنة العامة السريعة بين البلدان، ونشأ عن ذلك ما سمى بطراز «الفضائل والمثالب» أو «خصائص البلدان»، فما أن يسأل الواحد منهم عن الدنيا وساكنيها، حتى ينبرى واصفا، مع ضرورة التنبيه على كل مميز لدى هذه البلاد وساكنيها.

ويكاد يكون بابا ثابتا فى كتب الرحالة العرب أن يستهلوا وصفهم بتقديم تلك الصورة العامة لهذه البلاد، وقد برع منهم ـ بصفة خاصة ـ فى هذا المجال أبو دلف والمقدسى ويمكن العثور على نصوص كثيرة من هذا الطراز فى كتب الجغرافيا والتاريخ.[2] غير أن ما يعيب هذه النصوص ـ غالبا ـ انحرافها عن الجادة؛ إذ تحرص على الصنعة اللغوية المتمثلة فى الأنواع البديعية المختلفة، مما يؤدى إلى عدم الدقة أحيانا. إن الرحال لا ينقد من أجل النقد، ولكنه يحاول إصلاحا بطريقته الخاصة، وبما أداه إليه فكره. وعن طريق هذا النقد الجزئى المعتبر يمكن تكوين صورة صادقة لما يجب أن يكون عليه البشر، وذلك بتجميع هذه الأحكام بعضها إلى بعض، وصولا إلى صنع «كتاب الدنيا» كما سماه أحد الرحالين. والوسيلة المثلى لتقديم هذا النقد ألا يكون مباشرا أو جارحا، بل يكون مبثوثا فى تضاعيف الكتاب، ولكن دون أن يصل إلى درجة الإلغاز أو الرمز بحيث يعسر فهم قصده. إن الطابع التوجيهى المباشر غير مستساغ، وذلك لضمان المشاركة الفعلية للقارىء فى استخلاص النتائج. وليس من النقد فى شىء أن يسرف الرحال فى وصف محاسن بلد أو ذمه بناء على حوادث فردية عارضة عاشها.

---

(١) جريدة الأهرام القاهرية مقال بلا توقيع عن أدب الرحلات الغربية فى البلاد العربية، ١٩٨٦/٥/٢.

(٢) انظر: معجم البلدان ٤٧/١ ومروج الذهب ٦١/٢ ـ ٦٥، وتاريخ الأدب الجغرافى ٥٦/١.

الطابع الفكاهى:

قد يتخذ النقد طابعا فكاهيا ساخرا، ويكون ـ حينئذ ـ أبلغ فى الوصول إلى الأثر المرجو، وقد يبلغ هذا الطابع الفكاهى ذروته، فيسم رحلات بعينها بميسمه،أو يصبغ أجزاء منها بصبغه، ولعل الفصل الخاص بـ«صقلية» فى كتاب ابن حوقل ـ من أروع ما كتب الرحالة فى هذا المجال، وللمقدسى مواقف كثيرة طريفة تدخل فى باب الفكاهة، مثل حكاية تنكره فى ثياب المتصوفة، واستنتاجاته الطريفة من الأسماء، وثمة حكايات طريفة ضمنها ابن فضلان رسالته.

وقد اعتبر أحد النقاد أن من مميزات كتب الرحلات، أن تتجلى فيها روح الفكاهة و «روح الظرف والمنادمة.. وأوصاف شائقة للمشاهدات والانطباعات فى أسلوب كثير التوابل»[1].

وقد يصبح هذا الأسلوب الخفيف المرح الساخر علاجا، قال رحال: «لا أدعى أننى.. رتبت هذا الكلام، إنما نشرته كما كتبته.. ببعض الانطلاق والسرعة والمرح، فقد كان المرح والسخرية هما التعويض الوحيد الذى كانت تناله نفسى من التعب والإرهاق والوحدة[2]. إن روح الفكاهة تعيد التوازن لمضمون الكتاب وشكله، بحيث يتقبله القارىء.

---

(١) محمود تيمور «المصور» عدد ٢٣ يونيو ١٩٧٢ .

(٢) حول العالم فى (٢٠٠) يوم، أنيس منصور. دار المعارف، ١٩٧٥ ١٦.

الخصائص المميزة للشكل

المضمون المتجدد لأدب الرحلة فى حاجة لأشكال جديدة تواكبه، لذا كان تجدد المضمون مقرونا ـ دوما ـ بتجديد فى الشكل، حتى إنه ليمكن القول بأن للرحلة أشكالا بعدد نصوصها. وفى هذا التوجه يتفق أدب الرحلة مع الرأى النقدى الذى يعترف بأن «كل تشبث متزمت بمنهج فنى محدد ـ أيا كان هذا المنهج ـ يتناقض مع مهمة خلق تركيب جديد يستفيد بنتائج آلاف السنين من التطور الإنسانى، وعرض المحتوى الجديد فى أشكال جديدة»(١).

وفى هذا ـ أيضا ـ يكمن سر عبقرية الرحال الذى يحاول أن يخترع أشكالا جديدة، حتى يصل به الأمر إلى اختراع أشكال جديدة مختلفة لكل عمل يخرجه، مع التركيز دوما على ضرورة التناسق بين الشكل الجديد والهدف من العمل. غير أن مهمة الناقد توجب عليه البحث والتنقيب، وصولا إلى تحديد مناهج رئيسية تنتهجها كتب الرحلات، ويمكنها انتظام المناهج الفرعية. وبذلك يخرج أدب الرحلات عن كونه «فوضى مطلقة» ليصبح «فوضى منظمة». المهم أنه يجب الاعتراف بأن شيئا من الفوضى المنهجية مازال ـ وسيظل ـ يسوده.

يتحكم فى شكل الرحلة طريقة التدوين، التى تؤدى بدورها إلى تكوين بنية. وطريقة التدوين والبنية يحكمهما الأسلوب أو اللغة. ودرس هذه العناصر الثلاثة ـ مرتبة ـ قد يؤدى إلى الكشف عن بعض الخصائص المميزة لأدب الرحلة من حيث شكله.

---

(١) ضرورة الفن. آرنست فيشر، ترجمة أسعد حليم. الهيئة المصرية العامة للكتاب ط١٩٨٦،ص١٤٩.

أ ـ طريقة التدوين

إن الرحلة دعوة للتفتح الذهنى، الذى يدرك أن العالم ما هو إلا مجموعة أفراد، وأن خبرة هؤلاء ـ كأفراد ـ هى التى تصنع خبرتهم الجمعية، فتصبح العلاقة بين الإنسان والإنسان أكثر نضجا وسواء.

من هنا كان التدوين عملا حضاريا مستنيرا، ينم عن فطنة أوتيها الرحال: فطنة عملية، وفطنة نظرية. ولعله ليس من قبيل المصادفة أن الرحلة المدونة لا تعرف الازدهار إلا فى ظل الازدهار الحضارى لأمة من الأمم؛ فهذه الأمة يشعر أفرادها بالفخر لانتمائهم إليها، ويحاولون ـ جهدهم ـ تدعيم سيطرتها وازدهارها الحضارى ـ كمجموع وأفراد، مما يحفزهم على القيام برحلات تهدف إلى التعرف على من وما يجاورهم، ومن ثم ينقلون هذه المعرفة فى صورة كتاب رحلة، هدفه إعلام وإمتاع ذويهم.

تتمثل أهمية طريقة التدوين فى أنها تميز بين كتاب فى أدب الرحلات، وآخر فى نوع أدبى أو فرع علمى يعتمد على محصلات الرحلة. لذلك... فمن الضرورى أن يكون الهدف من التدوين واضحا فى ذهن الرحال، لأن تحدد الهدف تنبنى عليه خطوات كثيرة تتعلق باستخدام الأدوات الفنية، وهذا سيؤدى إلى القول بأن الرحال يختار نهجا بعينه، ويتبعه وهو واع بمميزاته وعيوبه؛ لأن هذا النهج ـ فى نظره ـ هو النهج الأمثل.

ولكن كيف تولد فكرة النهج؟

المادة المتوفرة فى متناول الرحال هى التى تحدد نهجه، فمن الرحالين من يدون ما يصادفه أثناء الرحلة بشكل منتظم، ومنهم من يدون بصورة متقطعة، ومنهم من يعتمد على ذاكرته بعد عودته. وعلى هذا ينقسم الرحالة ـ من حيث المادة المتوفرة لديهم ـ إلى قسمين:

١ ـ فريق يعتمد على المادة المدونة أثناء الرحلة، إضافة إلى الذاكرة والقراءات السابقة.

٢ ـ فريق يعتمد على الذاكرة فحسب.

ومن وجهة نظر الفن يتفوق الفريق الأول على الثانى؛ لأن مصادره متعددة، ومتوافقة، فإذا أغفل مصدر جانب طرافة، قام مصدر آخر بمئونته. كما تعد المادة المدونة منطلقا مقبولا لبناء كتاب رحلة متماسك. هذا، بينما يؤدى اعتماد الفريق الثانى على الذاكرة فقط إلى تجسد كل مزايا وعيوب الذاكرة فى العمل، ومن ثم فإن اعتباره وثيقة صادقة يصبح ذا محاذر.

لاشك فى أن مشاهد ومواقف بعينها لا يصلح لها إلا التدوين الفورى المباشر، بحيث يحتفظ المشهد أو الموقف أو التجربة بحرارته.

لكن.. ليس معنى ذلك أن تكون تلك الكتابة ـ أثناء الرحلة ـ هى المسودة الأخيرة، وإنما يمكن الاتكاء عليها حين كتابة المسودة الأخيرة.. صحيح أن الكتابة أثناء الرحلة تضمن وصفا حارا صادقا ولكنه انفعالى غير متأمل، وبذلك يفقد صفة العمق التى لابد من توافرها فى كل عمل أدبى، فالأدب ـ كما يرى بعض النقاد ـ تعبير عن تجربة متأملة، وعلى الفنان «أن يكون قوى الذوق والعاطفة، ولكن فى التعبير الفنى يجب أن يغلب عقله وإدراكه فى نقل التجربة أو فى تصويرها؛ إذ إن العاطفة المشبوبة ـ كالإحساسات الحادة ـ عمياء خرساء لا تبين عن نفسها»(١). ولابد للفنان ـ حتى يكون فنانا ـ أن يملك التجربة، ويتحكم فيها، ويحولها إلى ذكرى، ثم يحول الذكرى إلى تعبير، أو يحول المادة إلى شكل. فليس الانفعال كل شىء بالنسبة للفنان... إن الأشواق التى تحرق الفنان السطحى تخدم الفنان الحق، فهو لا يقع فريسة للوحش، بل ينجح فى ترويضه... وما يبدو من حرية الفنان وسهولة أدائه، إنما هو نتيجة لتحكمه فى مادته»(٢).

إن رحالين أخرجوا كتبهم متسرعين، ولاقت رواجا، ولكن ضميرهم أبى إلا أن يصبغها بصبغ الروية والتأنى، فمحا ـ فى النشرات التالية ـ كل أثر للتسرع أو العجلة.

---

(١) النقد الأدبى الحديث ٣٠٢، ٣٢١

(٢) ضرورة الفن ١٠.

وقد تتيح فترات التوقف الطويلة والجبرية ـ أثناء الرحلة ـ الفرصة للتأمل، ومن ثم التدوين المتأنى، ولكن الخوف من تسرب روح الضجر والملل ـ أثناء المقام ـ إلى نفس الرحال، وانعكاسها على ما يدونه ـ له ما يبرره. إن التأنى قد يبلغ مداه، فلا يدون الرحال حصيلة رحلة أو رحلتين، بل ينتظر حتى تنتظم رحلاته جزءا كبيرا من العالم، ثم يشرع بعدها فى تدوين نتاج هذه الرحلات، مدركا أن النظرة الصحيحة والحكم الدقيق لن يتأتيا إلا بالمقارنة والمقابلة.

* * *

obeikandl.com

مناهج التدوين

حين يكون الهدف من الرحلة والتدوين واضحا، وحين تكون المادة متوفرة ـ يشرع الرحال فى تدوين رحلته، مراعيا الموازنة بين الهدف والمادة، وبين التجويد الفنى الذى يهدف إلى التواصل مع القارىء والتأثير فيه، ويمكن له ـ حينئذ ـ أن يختار واحدا من المناهج التالية:

١ ـ التدوين الزمنى.

٢ ـ التدوين المكانى.

٣ ـ التدوين الموضوعى.

٤ ـ التدوين الانتقائى.

٥ ـ التدوين الاستدعائى.

تلك هى المناهج السائدة فى كتب الرحلات، ويمكن للرحال تجاوزها، وابتكار منهج جديد ـ إن استطاع، كما أن له أن يستخدم أكثر من منهج فى العمل الواحد، أو يستخدم منهجا مختلفا فى كل عمل من أعماله. وهى من السعة والرحابة بحيث يمكنها استيعاب كل طرق التدوين الممكنة.

ولاشك أن لكل منها مميزات، كما أن لها عيوبا، والرحال المميز هو الذى يستفيد بالمزايا، ويتلافى العيوب.

«١» التدوين الزمنى

وهو من أكثر هذه المناهج استخداما، وأكثرها تنوعا داخليا، كما أنه أضبطها وأوثقها. يستلزم هذا النهج تدوينا آنيا، يقسم الزمن إلى وحدات، وكلما كانت تلك الوحدات أكبر، كان الحفاظ على وحدة العمل الفنى أقرب، ويمكن ـ بناء على استقراء العديد من نماذج أدب الرحلات ـ تحديد أهم الاتجاهات فى إطار هذا النهج كما يلى:

١ ـ تتفق كل ـ أوجل ـ هذه النماذج على ضرورة تحديد الإطار الزمنى العام للرحلة، وذلك بتحديد زمن بداية الرحلة ونهايتها.

٢ ـ تتبع بعض النماذج طريقة العد التصاعدى للوحدات الزمنية ،كأن يقال: اليوم الأول، اليوم الثانى، اليوم الثالث.. إلخ، أو: الأسبوع الأول، الثانى، أو: الشهر الأول، الثانى.. إلخ.

٣ ـ ويميل بعض الرحالين إلى تدوين محصلات الرحلة مع بداية كل شهر، أو مع بداية كل فصل طبيعى. أما إذا طال أمد الرحلة فيمكن تأريخها بالعام.

٤ ـ أو تتخذ شكل المذكرات اليومية التى تدون فى فترات منتظمة، أو غير منتظمة ـ مع كتابة تاريخ التدوين. ولهذا النموذج شكلان: الأول يجعل من التاريخ عنوانا للفصل، والثانى يذيل الفصل بتاريخ تدوينه ـ بعد أن يكون قد صدره بعنوان موضوعى.

٥ ـ وفى حالات كثيرة اتخذ التدوين الزمنى شكل رسائل من الرحال إلى أصدقائه أو أفراد أسرته، مع النص على تاريخ كتابتها ومكانها.

٦ ـ وقد يتبع الرحال الإطار الزمنى دون تحديده تحديدا دقيقا منتظما خاصة إذا كان أمد الرحلة ـ أو الرحلات ـ طويلا، وهو ما يتفق مع التسلسل المكانى.

٧ ـ ورغبة فى التشويق والإثارة، قد يلجأ إلى استخدام وسائل فنية فى تعامله مع وحدات الزمن؛ فيبدأ من النهاية ـ أى العودة، ثم يشرع فى استعراض بقية مراحل الرحلة، عن طريق الاسترجاع الزمانى.

٨ ـ وقد لا يتخذ التدوين الزمنى شكلا منتظما، فيتم بالتبادل مع التدوين المكانى أو الموضوعى.

وفوائد التدوين الزمنى عديدة، منها: أنه يجعل من الرحلة وثيقة تاريخية معتمدة، كما أنه يلمح أن تاريخ البشر واحد، متصل غير منفصل.

(٢) التدوين المكانى

وهو من الأنواع الشائعة عند الرحالة القدماء؛ إذ يتتبع الرحال التسلسل الطبيعي للرحلة علي أرض الواقع، وبذلك يضمن لها تماسك البناء وسلاسته.

في وصف الرحال للمكان يفضل أن يصفه وصفا ذاتيا، إبان تفاعله معه. أما إذا وصفه وصفا خارجيا بحتا، ومستقصيا، ومدعما بالأرقام والإحصاءات، فالأجدر به أن يعد كتابه كتابا جغرافيا لا كتابا فى أدب الرحلة. ويدخل في مآزق التدوين المكاني اعتماد نظريات جغرافية خاطئة ، ووصف العالم علي أساسها ،كنظرية الأقاليم السبعة، والمعمور والمغمور من الأرض- عند القدماء.

وأهم اتجاهات التدوين المكاني هي:

١- اتباع التسلسل الطبيعي أثناء الرحلة، من خلال الوحدات المكانية الصغيرة.

٢- اتباع التقسيمات السياسية، ووصف كل دولة- أو مملكة- علي حدة مع اتباع خط السير حينا، وإغفاله أحيانا.

٣- الاختيار الداخلي، وذلك باتباع طريقة التدوين المكاني مع التركيز علي موضوع بعينه في كل مكان يحله الرحال: كالصناعة، أو المرأة، أو الثقافة.. إلخ.

٤- التبادل مع التدوين الزماني، والتدوين الموضوعي.

٥- الحرص- من لدن بعض الرحالة- على وضع مقدمة تصف العالم بعامة، ثم تفصل أجزاءه استفادة بمعطيات الرحلة كمصدر من مصادر متعددة، ويشبه ذلك أن يضمن الرحال الأماكن التي زارها فى عمل علمي «كمعجم للبلدان» أو موسوعة عامة شاملة.

٦- الاقتصار علي وحدة سياسية- أو طبيعية- بعينها، ووصف وحداتها الصغيرة وصفا مفصلا، مع كثير من الاستطراد.

(٣) التدوين الموضوعي

ويقوم علي اختيار موضوعات بعينها، والانطلاق منها إلى وصف مكان أو شعب، أو عدة أماكن أو شعوب. ولابد أن تتسق هذه الموضوعات مع الهدف الأساسي الذي من أجله دون الرحال رحلته. قد يراعي في هذا الاختيار التسلسل الزماني المكاني، وقد لايراعي. وقد يتخذ هذا النهج شكلا علميا، فيتتبع موضوعا بعينه في كل مكان يحل به الرحال.

وقد يندرج تحت الموضوعات الأساسية المختارة موضوعات فرعية متعددة تتعلق بها، وتنطلق منها. وهنا يجب التأكيد علي ضرورة انسجامها مع الهدف، وضرورة إيجاد رابط قوي بينها.

* * *

(٤) التدوين الانتقائى

قد يحدث أن يقوم الرحال برحلات عديدة، ويخص كل رحلة بكتاب ثم يتراءي له أن يدون خلاصة ما توصل إليه في كتاب واحد، فيعود إليها لينتقي منها أفضل ما فيها، شرط أن يكون متجاوبا مع الهدف الجديد.

أو يري أن ظاهرة بعينها يختص بها بلد ما، فيجمع الظواهر المميزة لتلك البلاد فى كتاب. وقد ينتقى أسطورة أو حكاية أو واقعة أو تجربة من كل بلد زاره، ويحكيها في كتاب.

وقد يؤلف كتابا علميا أو أدبيا، ويطعمه ببعض الطرائف التي أنتجتها رحلاته، طالما توافق هذا المنتج مع موضوع الكتاب.

وبعض الرحالة يروق له أن يرحل فى كتب الآخرين؛ فيؤلف كتابا منها، يعرض فيه لأفضل الرحلات، ولأفضل ما فى كل رحلة، يساعده علي ذلك خبرته وذوقه المنقح الواعي.

(٥) التدوين الاستدعائي

وفيه يعتمد الرحال علي تداعي الأفكار وتواردها، فيبدأ بفكرة ملحة، تستدعي فكرة، وتستدعي تلك الفكرة أخري.. إلخ.

وقد يكون ذلك النهج أقرب إلي العشوائية، نظرا لاعتماده علي الذاكرة التي شحنت بنتاج الرحلة، ولم تستطع تمييزه، فأخرجته كيفما اتفق.

وقد يكون ذلك النهج عاما في الكتاب كله، أو فى تفاصيله، بمعني أن يبني العمل علي أساس واضح، وفصول منظمة، ولكن المادة التي يصاغ منها الفصل تعتمد علي منطق التداعي هذا.

openkandl.com

ب- البنية:

الغرض من درس البنية بيان مدي التوافق بين أجزاء النص فيما بينها، وبيان مدي الانسجام بين النص وهدفه، وبذلك يكون التوافق علي ضربين:

أ- توافق داخلي.

ب- توافق خارجي.

والذي لاشك فيه أن النص الذي يتمتع بقدر أكبر من التوافق، أفضل من وجهة نظر الفن، فبعض النقاد يري جمال الفن فى نظامه وحسن تنسيقه.

التوافق الداخلي ينطلق من الجزئيات الصغيرة، مفترضا تناغمها وتناسقها، فيشترط اختيار المفردات المعبرة- بحسب الأصل أو الآن، وصولا إلى تكوين جملة ذات نسق معتاد أو مبتكر هدفه الأول بيان وتجلية هدف الرحال- مع مراعاة النواحي الجمالية أيضا. وإذا تم ذلك فسينشأ - من تجاور هذه الجمل وتفاعلها- فقرات يشترط فيها وضوح الأفكار، وتناغمها مع ما سبقها وما يليها، بحيث تكون حلقة من سلسلة متماسكة. وسيكون جمالها تلقائيا؛ لأنها مكونة من وحدات صغيرة متناسقة. هذه الفقرات تتحد لتكون مقطوعة، أو فصلا أو بابا- حسب اصطلاح كل رحال، وشرط هذه أن تكون متسقة اتساقا داخليا باتساق أجزائها، واتساقا خارجيا بتناسقها مع مجموع الأثر وتوافق الأخير مع الهدف الأساسي، وخدمته له.

والرحال المميز الذي يجيد وصف رحلته، سوف يحقق لبنيتها كافة العناصر الفنية التي تكفل تماسكها، طالما وازن- بدقة- بين أحداث الرحلة وشخصه؛ فوحدة الحدث- وتدرجه ومنطقيته- مرتبطة بشخص الرحال وواقعية الرحلة.

وهناك نوعان من العقد تتضمنهما كل رحلة:

١- عقدة رئيسية.

٢- عقدة فرعية.

العقدة الرئيسية تبدأ بخروج الرحال، وتستمر فى التصعيد حتي يصل الرحال إلى هدفه، ثم تبدأ رحلة العودة، ومعها تبدأ العقدة في الانحدار، ومن ثم الحل المتمثل في الوصول لنقطة الانطلاق. والعقد الفرعية تتمثل في كل المآزق والمخاطر والمتاعب التي يواجهها الرحالة، وكل عقدة يمكن أن تستقل بذاتها، وعلي هذا فهي كثيرة فى الرحلة الواحدة. ولكن.. علي الرحال أن يسخر العقد الفرعية لخدمة العقدة الرئيسية، بحيث لا تتضخم عقدة فرعية علي حساب العقدة الرئيسية، أو تشذ عن فلكها، فيبين الخلل.

وللرحال أن يستخدم كافة الوسائل الفنية التي تكفل التواصل بين الأثر والمتلقي، والأمر متروك لفطنته، فله أن يقدم- أو يؤخر- أحداثا أو يجزئ حدثا، أو يقدم بعض- لا كل- الحدث ، اعتمادا علي فطنة القارئ، وثقة في ذكائه. كما يباح له استخدام عنصر التشويق، وكذا عنصر الإيحاء والرمز- يباح له ذلك كله طالما ساعد علي تماسك البناء العام وتزيينه، إلا إذا أدي إلي نتيجة عكسية، أو تعارض مع هدف الرحال من التدوين. لذلك فإن التشويق الذي يصل إلي حد الإثارة غير الهادفة، والإيحاء الذي يصل إلي حد الرمز المبهم- مرفوضان.

قد يبدو أمرالوحدة الموضوعية سهلا إذا كان مجال الأثر رحلة واحدة، غير أنه يبدو صعبا إذا كان مجاله أكثر من رحلة. وهنا يظهر أثر تمكن الرحال من أدواته، ويظهر أثر الخطة المبدئية التي عليه وضعها، وتحديد معالمها.

أحيانا يغلب تخصص الرحال، ومن ثم يحاول تدعيم أثره ببعض مايبرز هويته؛ فقد يكون الرحال شاعرا، أو رساما أو قصاصا، أو عالما.. إلخ، ويرغب فى تدعيم أثره بقصائد أنتجتها الرحلة، أو لوحات.. وهو ما يباح له- شرط أن يتوسل بأدوات فنية تبرر مسلكه، وبذلك يكون هناك تناسق في مجموع النص.

ولكن.. يبدو الأمر أكثر صعوبة في حال العالم الذي يتحول النص بين يديه بحثا علميا خالصا مدعما ببعض اللمحات الشخصية العابرة. والجهد الذي سيبذله هذا العالم لتحقيق التلاحم بين أجزاء أثره سيكون ضخما ومتكلفا في آن، ولكن

يشفع له أن عمله قام فى الأساس علي نتاج رحلة- أو رحلات- واقعية.

ويسرى هذا الحكم علي المقدمات الجغرافية التقليدية التي كان الرحالة يصدرون بها كتبهم؛ إذ تقبل علي أنها محاولة لتهيئ ذهن القارئ، ووضعه في الأجواء نفسها التي عاش فيها الرحال، أو لكي يسهل عليه تتبع الرحال إبان تحركه.

***

obeikandl.com

أنواع البنية

يمكن تقسيم البنية في أدب الرحلات – بناء علي استقراء– إلي الأنواع التالية:

١– البنية النمطية.

٢– البنية المحورية.

٣– البنية الانتقائية.

٤– البنية ا التضمينية.

وفيما يلي تفصيل لها.

١– البنية النمطية:

وهي تلك البنية التي تتبع نمطا معتاداً قريبا من صورة الرحلة الواقعية، ويكون الزمان والمكان– فيه– منسقين مرتبين– حسب واقع الرحلة. وبذلك تتكون الرحلة من أربع وحدات هي:

أ– المقدمة، أو التمهيد.

ب– رحلة الذهاب.

جـ– وصف هدف الرحلة.

د– رحلة العودة، والخاتمة.

وهذه البنية تصلح لكتاب يدون حصاد رحلة واحدة فحسب– دون خلط مع غيرها، وبذلك تكون معالمه واضحة محددة، ممثلة للواقع أو قريبة منه.

والمقدمة في هذا النوع ذات أهمية كبري؛ لأنها ستكون بمثابة مفتاح أو كشاف الرحلة، الذي يفتح وينير مغالقها للقارئ، ولكن دون إفساد مبكر لمتعته يكشف كل الأوراق مرة واحدة، ومن ثم تصبح الرحلة تحصيلا لحاصل، وتفقد صلتها بالقارئ، وتأثيرها فيه. المقدمة مرشدة فحسب، ولذلك يستحسن أن تكون قصيرة، لأن القارئ يكون متشوقا لمعرفة تفاصيل الرحلة.

ورحلة الذهاب تبدأ من لدن التفكير في الرحلة والإعداد لها، ثم التحرك الفعلي، حتي الوصول إلي المنطقة هدف الرحلة وغايتها. ودائما تتصف هذه الوحدة بكثرة تفاصيلها، وسذاجة تجاربها، لأن الرحال يكون فى حالة تشبه حالة انعدام الوزن، كما أن نطاق معلوماته واكتشافاته يكون محدودا. وهي وحدة ممهدة للوحدة الأساس، ومهيئة لذهن القارئ، ومثيرة لأسئلة تحتاج إجابة، كما قد تكتنفها بعض الأخطار التي تجعل مصير الرحال مهددا. وبذلك يكون القارئ قد اندمج مع أحداث الرحلة، وأخذ ذهنه ينشط، استعدادا للوحدة الأساس.

الوحدة الأساس هي: وصف هدف الرحلة- أيا كان هذا الهدف، مع الإجابة علي الأسئلة المثارة، وبيان كيفية تغلب الرحال علي المصاعب والأخطار التي صادفته. من ثم تكون تلك جميعا معلومات وخبرات عملية واكتشافات تفيد القارئ إذا كان معاصرا، وتزيده معرفة ودراية إذا كان الفارق الزمني بينه وبين عصر الرحلة متسعا.

إذا تم ذلك كان من المبرر أن تبدأ رحلة العودة، وللرحال أن يصفها - إذا كانت في أماكن مختلفة وبين أناس مختلفين عن أولئك الذين رآهم في رحلة الذهاب، وله أن يختصرها- لا أن يتجاهلها- إذا كانت مكررة، أو أن يضع فى اعتباره- أثناء التخطيط المبدئي- توزيعا متوازنا لما شاهده بين رحلة الذهاب ورحلة العودة.

ثم يكون الوصول إلي نقطة الانطلاق، فيصف الرحال مشاعره نحو وطنه ومواطنيه بعد أن رأي غيرهم، وبذلك تكون العقدة قد حلت، فيختم الرحال رحلته.

إن هذا التسلسل الطبيعي- الزماني المكاني- والفني، يضمن للبنية تماسكا وتواصلا، فضلا عن أنه أسهل أنواع الكتابة فى أدب الرحلات.

٢- البنية المحورية

وتستند إلى تحديد محاور بعينها يهتم بها الرحال أين ومتى رحل، وقد تبنى على أساس رحلة واحدة أو رحلات متعددة متفرقة، وهذه المحاور يحددها شخص الرحال

وتخصصه العملى.

هناك من يهتم بعلماء كل بلد يحله أو أدبائه، وهناك من تجذبه المناظر الطبيعية، أو المذاهب الفكرية أو الثروات الطبيعية، وهناك من يبحث عن كل غريب وعجيب، أو يهتم بوضع المرأة، أو أثر البيئة، أو الفنون.. إلى آخر هذه الاهتمامات.

وقد تكون هذه البنية المحورية صرفا، وقد تكون فى إطار بنية نمطية، والتضمين فى إطار بنية نمطية أكثر. وإذا تمسك الرحال بالبنية المحورية مستقلة فعليه أن يبذل جهده من أجل تدعيم الصلة بين هذه المحاور، مع عدم عرضها فى شكل مباشر أو جاف. والأفضل تقديم هذه المحاور من خلال إطار ذاتى واضح، يكفل الترابط والتوحد بينها جميعا دون عنت أو تعنت.

إن البنية المحورية أشبه بالبحث العلمى، ولذلك يخشى من تسرُّب الروح العلمى الجاف إليها. وتنقسم البنية المحورية إلى قسمين:

١ - بنية ذات محور واحد.

٢ - بنية متعددة المحاور.

والخطر فى القسم الثانى أكبر ،خاصة إذا كانت المحاور متباينة، وعلى الرحال أن يبذل جهده لسد أية ثغرة قد تنشأ بسبب هذا التباين.

٣- البنية الانتقائية

الانتقاء ضرورة فى كل نوع من أنواع الرحلة، وهو يتم بطريقة واعية حينا، وغير واعية أحيانا، وتتحكم الذاكرة والمادة المتوفرة فى ذلك. ولكن الانتقاء هنا انتقاء واع مدرك قائم على حصاد رحلات متعددة، ولايمكن أن يقوم على أساس رحلة واحدة.

وهذا الانتقاء ينتج عنه فجوات كبيرة وعديدة من حيث الإطار الزمنى والمكانى، غير أن الرحال يستطيع بذوقه المرهف المحافظة على وحدة البناء، ويساعد على ذلك وحدة الموضوع المنتقى، وكذا وحدة الهدف الذى تم الانتقاء على أساسه.

وأهم اتجاهات البنية الانتقائية هى:

١ – انتقاء الرحال لأبرز وأفضل ما فى كتبه بناء على هدف محدد.

٢ – انتقاء موضوع بعينه أو ظاهرة، والتتبع المستمر فى كل مكان لهما.

٣ – انتقاء من رحلات الآخرين.

وهذه البنية ترتبط –إلى حد كبير– بطريقة التدوين الانتقائى.

٤ – البنية التضمينية

البنية التضمينية هى تلك التى ترتبط بأنواع أدبية أخرى، وتستخدم أدواتها. وقد يكون هذا الامتزاج مفيدا، ولكنه ضار فى أغلب الأحيان؛ فاستخدام البنية التضمينية التى تعتمد على المزج بين نوعين أدبيين –يعود بالضرر عليهما جميعا؛ إذ ينتفى تميز كلٍ واستقلاله. ويجب على الكاتب الحذر الشديد حين التفكير فى تسجيل عمله، ووضع خطة مبدئية محكمة تكفل للعمل الترابط والوحدة العضوية، وصولا إلى التوافق مع الهدف من تدوين العمل.

ويظهر أثر الرحلة السلبى على غيرها من الأنواع حين ترتبط بالرواية فالروائيون فى «اختيارهم هذا للرحلة لكى تمثل الحركة فى رواياتهم هو الذى يبرر إلى حد كبير – هلهلة التكوين النسبية.. فروايات «بيلو» –وغيره– استطرادية فى طبيعتها تنظمها سلسلة من اللقاءات الإنسانية التى كثيرا ما تكون متقطعة»[1]. ورغم ذلك فإن حصاد الرحلة يغرى أدباء كثيرين باستغلاله، وتضمينه أعمالهم ،ويتبدى تأثير أدب الرحلة فى غيره من الأنواع الأدبية كما يلى:

أولا: استقاء بعض التفاصيل التى يستخدمها الأدباء فى كتاباتهم كما هو الحال فى كوميديا «العاصفة» لشكسبير، فقد أثبت الدارسون أنه يعتمد فى بعض تفاصيل الرحلة –التى تضع العاصفة حدا لها– على بعض تفاصيل الرحلات السابقة لمسرحيته..

ثانيا: إسهام وصف الرحلة –إلى حد ما– بعنصر من عناصر التكنيك –أو

(١) الأدب الأمريكى، روبرت سبلر، ترجمة محمود محمود، النهضة المصرية د.ت، ٢١٩.

الشكل الفنى- لبعض الأعمال الأدبية الأخرى، وخاصة الرواية - والرواية التى تعتمد على ما يسمى «الرحلة الفلسفية» أو «الرحلة النقدية».

ثالثا: استخدام الكاتب ذاته لبعض مادة كتب الرحلات الخاصة به -وليس بغيره من الكتاب- فى بعض ما يلى من أعماله الأدبية[1].

ورغم أن الرحلة تؤثر فى غيرها من الأعمال الأدبية، فإن تأثيرها فى الأنواع الأخري أضعف من تأثرها بها، بحيث يحتفظ النوع الآخر ببنيته الأساسية -كما خطط لها المؤلف، بينما تذوب بنية الرحلة الأصلية فى البنية الجديدة.

(جـ) اللغة

هدف تدوين الرحلات الوصول إلى حقيقة الإنسان، ووضعه فى الكون، ونجاح الكاتب مرهون بتوضيح هذا الجانب كما يراه.

البناء المنطقى خير وسيلة لتحقيق الهدف، وهذا البناء يبدأ من الوحدات الصغيرة المتمثلة فى الكلمة والعبارة والفقرة، وينتهى إلى الروح العام المرفرف على العمل كله، يشمله، ويربط بين أجزائه، ويسد ثغراته.

والوحدات الصغيرة قد تكون أكثر تعبيرا عن شخص الكاتب وأسلوبه من البناء العام؛ ولذا فإن درسهامهم . والشروط المفترضة فى الكلمة المفردة كثيرة منها: أن تكون سهلة مألوفة، ودقيقة طريفة، ومستعملة، وغير مكررة فى جملة واحدة قصيرة، وغير متنافرة مع جاراتها، فإذا تحققت هذه الشروط فى الكلمة المفردة، تكونت جملة خالية من عيوب المفردات، وأصبح على الكاتب ضرورة التأليف بين هذه المفردات تأليفا ينم على غرضه، ويكشف عن شخصه الأدبى والعام فى آن. وعلى هذا تكون الجمل ذات نمط خاص بالمؤلف، بحيث نستشعر روح هذا المؤلف متضمنة فيها، كما يجب أن توحى هذه الجملة بالجو النفسى الذى تعبر عنه، وكذا بطبيعة المكان.

وقد درج كتاب هذا النوع على استخدام الجمل القصيرة، الخاطفة التى لاتلتزم

(١) دراسات فى الرواية الإنجليزية د/أنجيل بطرس -الهيئة العامة للكتاب. ١٩٨١، ١٣٠- ١٣١.

بالأنماط التقليدية، والتى تتسم بروح الفكاهة، محاولة أن تكون صادقة ودقيقة ومعبرة عما يجول بنفوسهم، وما يشاهدون، مع اعتقادهم الجازم بأن الوصف –أى وصف– لايستطيع نقل الحقيقة، وقصاراه الاقتراب منها، ومحاولة تقريبها للقارىء. لقد تساءل رحال عما إذا كان ممكنا وصف المشاهد واللوحات التى رآها، وكانت إجابته: «لا... لايوجد وصف يحيط بها فهى ليست مجرد شكل أو صورة تشاهد، وإنما هى إحساس.. مذاق.. طعم.. رجفة فى القلب»[1].

والحيوية من صفات الجملة التى يستخدمها الرحال، بحيث يستشعر القارىء الحركة المتتالية خلالها، ولذلك يلاحظ أن الأفعال الدالة على الحركة لاتكاد تخلو منها جملة، وهذا يعود إلى طبيعة الرحلة المعتمدة على الحركة، ومن ثم فإن نقل هذه الحركة من أرض الواقع إلى حيث دفتا كتاب يصبح أمرا ضروريا. وينتج عن هذه الحركة وتلك الحيوية أن الصور واللوحات تتتابع وتتوالى، بحيث لايقف القارىء أمام لوحة واحدة وقوفا طويلا، إلا إذا كانت من الروعة والجمال غاية. وينتج عنها كذلك تحرر الجملة من كل ما يعوق انطلاقها؛ ولذا فإن اللجوء إلى المحسنات البديعية –وما يشبهها– يصبح أمرا مكروها –مالم يأت عفوا؛ لأن اللجوء إليها يقف –حينئذ– ساترا وحاجبا للحقائق والغايات التى تتوه وسط الحرص على التصنع. كما أنه دليل إفلاس فكرى غالبا.

إن جمال العبارة وجمال الأسلوب لايتأتيان بالتكلف، وإنما يتأتيان بالتلقائية والاسترسال. وحين يكون المعنى واضحا مستقرا فى ذهن المؤلف فإن ترجمته إلى مفردات وجمل تصبح سهلة، ويصبح التواصل بين المؤلف والقارئ متحققا –حتى لو أدى ذلك إلى الخلل أحيانا؛ لأن ذلك الخلل سيكون شذوذا يسهل اكتشافه.

فى المقابل، فإن الاسترسال مع السجية، والتبسط مع القارىء ومحاولة إضفاء الحيوية والتلقائية على العمل–كل ذلك سيؤدى إلى التواصل، وسيكون البناء محتفظا بتماسكه وصلابته فى الوقت نفسه. لقد أدرك بعض الرحالين هذا الأمر،

---

(١) الغابة. مصطفى محمود ٢٧.

ولكنهم اشتطوا إبان التنفيذ؛ فلم يحرصوا على تثقيف ما كتبوا، ونشروه كما كتب أول مرة، فبان الخلل -أحيانا- فى أعمالهم، ووقعوا فى مزالق كثيرة تتعلق بالمضمون والشكل كليهما.

إن الاسترسال مع النفس لايعنى الثرثرة غير المجدية، بل وظيفته الكشف عن حقيقتها دون زيف أو تضليل، وهذا لن يتأتى إلا بالدقة فى استخدام المفردات، والحذق فى تركيب الجملة. والجملة المركزة -المعبرة- خير ما يؤدى هذا الغرض، ولذا فإن النصيحة المسداة للرحالة -دوما- هى ضرورة الإيجاز حيث لاداعى للإطالة، وألا يستخف أحداً الطرب فينسى -أو يتناسى- أنه متوجه بعمله إلى جمهور. إن هذا الإيجاز -غير المخل- يكفل الوضوح والدقة فى العبارة، ويمهد للتلاحم بين العبارات جميعا وصولا إلى بناء قوى متماسك لكن.. ليس معنى هذا أن يؤدى الايجاز والتركيز إلى الإبهام والغموض بحيث تتوه الحقيقة، ويصبح غرض المؤلف مجهولا.

إن جفاف العبارة قد يكون مقبولا، إذا كان ثمة ما يتطلب ذلك -خاصة إذا كان الأمر يستدعى إحصاءات تستخدم لغة الأرقام، أو نقل كلام نقلا حرفيا لأنه بمثابة وثيقة. أما الغموض والإبهام فليس هناك ما يستدعى قبولهما؛ لتعارضهما مع الطابع الكشفى للرحلة.

والرحالة على صنفين من حيث الأسلوب:

١- صنف حرفته الفن -أو الأدب خاصة، أوله صلة به.

٢ - صنف لايمت للأدب بصلة، ولكن الرحلة تحفزه على الكتابة.

الصنف الأول سيكون أسلوبه طوع يديه، أو يستطيع السيطرة عليه -على الأقل؛ ولذا سيكون أداؤه للحقيقة ميسرا، ويصبح همه ضرورة التأنق والتجويد الشكلى الذى لايؤثر على المضمون، لذا يلجأ بعض الرحالين للأسلوب القصصى بحيث يجعل رحلته قصة متكاملة البناء. وبعضهم يزداد فى تأنقه؛ فيحاول أن يسم أسلوبه بميسم البلد أو المكان الذى يصفه، وهذا الأمر صعب ولم يدعه إلا القدماء، وخاصة المقدسى.

كما يحاول بعضهم استخدام ذخيرته الأدبية أو الفنية أو الثقافية -بعامة- فى تزيين رحلته؛ كأن يزودها ببعض محفوظه من الشعر، أو ببعض الحكايات والأساطير التى يقتضيها منطق التداعى، أو يزودها بنقول عن سابقيه مفيدة فى موضوعها، أو يضمنها آيات قرآنية وبعض الأحاديث النبوية.. إلخ.

والصنف الثانى سيحاول -جهده- أداء الحقيقة، وقد يحاول التأنق فتخونه سليقته وقدراته؛ فيبعد عن الحقيقة من حيث لايدرى. وعند هذا الصنف ستظهر عيوب أسلوبية كثيرة؛ كعدم القدرة على أداء المعنى بدقة -خاصة إذا طال بعده عن موطن لغته الأصلية، واستخدام كلمات فى غير مواضعها، ومحاولة شحن عمله بمصطلحات تتعلق بمجال تخصصه ليدل على تمكنه منه، أو يحاول تعريب -إذا كان عربيا- هذه المصطلحات أو الكلمات الأجنبية دون أن يكون لديه الحس اللغوى الدقيق، فتستحيل هذه الألفاظ والمصطلحات مسخا مشوها. وقد يلجأ البعض إلى اشتقاق مصطلحات جديدة من باب التظرف أحيانا، أو يستخدم الألفاظ الأجنبية ويستغرق فى شرح معناها وجذرها، وكأنه يعوض بذلك كله عدم قدرته على الأداء الدقيق للحقيقة.

أما عن الأخطاء اللغوية فى كتب الرحلات القديمة، فإنه من الصعب التحقق من نسبتها للرحال؛ لأن تداول النساخ للكتاب، وقدم العهد به، قد يؤديان إلى ذلك الخطأ، كما أن قيام المستعربين بتحقيق معظم نصوص هذه الرحلات قد حشدها بالكثير من الأخطاء التى يصعب نسبتها إلى واحد من ثلاثة: الرحال، والناسخ، والمحقق. وإن كانت مسئولية الأخير كبيرة، إن لم تكن بتصحيح الخطأ، فبالتنبيه عليه، والإشارة إلى صحته.

فى رأى أحد الباحثين أن القيمة الأدبية لكتب الرحلات «تتجلى فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفنى. وبرغم ما يتسم به أدب الرحلات من تنوع فى الأسلوب، من السرد القصصى إلى الحوار إلى الوصف -وغيره، فإن أبرز ما يميزه أسلوب الكتابة القصصى المعتمد على السرد المشوق، بما يقدمه من متعة ذهنية كبرى»[1].

---

(١) أدب الرحلات عند العرب د/حسنى محمود حسين الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦، ١٠.

وعنصر الحوار من أهم العناصر التى يجب أن يزود بها الرحال عمله؛ ذلك أنه يتيح الفرصة للشخصيات لتظهر ظهورا حرا، فتعبر عن نفسها بنفسها، كما يؤكد على السمة الأدبية لكتب الرحلات. وكثيرون أولئك الذين يلجأون لهذا العنصر مدركين أثره فى إضفاء الحيوية والواقعية على كتبهم، ومدركين أنه فرصة لـ «أنا الآخر» كى يكشف عن ذاته، وأن تنوع الأسلوب يتفق وتنوع الحياة وتقلبها. ولأن قيمة هذا العنصر عالية، ومراعاةً لوجوب التوازن بين أجزاء العمل -يحسن أن يزود الرحال عمله بنماذج منه، تزويدا يراعى التناسق والتناغم العام بين مجموع الأثر، بحيث يكون الحوار عامل إنقاذ وإيقاظ: إنقاذ للعمل من التردى فى شرك الذاتية المسرفة، أو الاستطراد فيما لايفيد، وإيقاظ للقارىء وتنشيط لذهنه، لما يتضمنه الحوار من حيوية وفكر متعارض، أو جدل يستلزم الانتباه.

إن النثر الفنى ذا الخصائص الأدبية العالية أفضل إطار يمكن أن يحتوى الرحلة؛ ولذا فإن رحلةً لم يدون حصادها بالشعر -المقابل للنثر، ولم يؤلف أديب عملا معتمدا على حصاد الرحلة وأدعى أنه أدب رحلة إنما سماه باسمه؛ كأن يستفيد بحصاد رحلة فى تأليف رواية أو مسرحية فيطلق على العمل اسم «رواية» أو «مسرحية».

خصائص النثر أهلته لأن يكون أداة أدب الرحلة؛ فوظيفته تتفق ووظيفة أدب الرحلة؛ «فالأدب -وبصفة خاصة النثر- ليس مجرد إمتاع، وإنما هو سبر للنفوس، وكشف للحقائق، ونفاذ إلى أسرار الحياة والكون، ليعتبر ويتأمل مفكر، وليزداد الإنسان وعيا بمنزلته واستبصاراً لقيمته.. ثم إن للنثر وراء ذلك غاية أخرى هى: الحوار على مستوى البشرية، والمساهمة فى إثراء الحضارة وتراث الإنسان بعامة، ولايتم ذلك إلا بأن يكون الأدب متفتحا بالحوار وقابلا له، جادا فى التفاعل - أخذا وعطاءً مع الأمم الأخرى»[1].

ولغة الشعر تختلف عن لغة النثر؛ فلغة الشعر لغة العاطفة ولغة النثر لغة العقل. ذلك أن غاية النثر نقل أفكار المتكلم أو الكاتب، فعبارته يجب أن تشف فى يسر

(١) مفهوم النثر الفنى. البشير المجدوب الدار العربية للكتاب تونس ١٩٨٢، ٢٢- ٢٣.

عن القصد، والجمل فيه تقريرية وعلامات على معانيها، ووسائل تنتهى بانتهاء الغاية منها. وموضوعه حدث من الأحداث، أو مسألة من المسائل المبنية على الفكر[١].

والنثر -كأدب الرحلة- أكثر ارتباطا بالجمهور؛ فالشاعر «يستغرق فى تجربته والكشف عنها غايته، ونظره إلى جمهوره ثانوى؛ لأن عمله استجابة لشعوره قبل أن يكون تلبية لفكره. أما الناثر فغايته تبادل الحجج والأفكار؛ ولذا يخف سريعا إلى غايته، ونظره -فى نثره- موجه -أولا - إلى جمهوره[٢].

والنثر أصل الكلام -والوحدة فيه أظهر؛ قال أبو حيان التوحيدى: «النثر أصل الكلام، والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل.. ومن شرفه أيضا أن الوحدة فيه أظهر، وأثرها فيه أشهر، والتكلف منه أبعد، وهو إلى الصفاء أقرب. ولاتوجد الوحدة غالبة على شىء إلا كان ذلك دليلا على حسن ذلك الشىء وبهائه ونقائه وبقائه.. ومن شرف النثر أيضا أنه مبرأ من التكلف، منزه عن الضرورة، غنى عن الاعتذار والافتقار والتقديم والتأخير والحذف والتكرير، وما هو أكثر من هذا مما هو مدون فى كتب القوافى والعروض.. والنثر من قبل العقل، والنظم من قبل الحس، ولدخول النظم فى طى الحس دخلت عليه الآفة، وغلبت عليه الضرورة واحتيج إلى الإغفاء عما لايجوز مثله فى الأصل الذى هو النثر.. والنثر كالحرة والنظم كالأمة. والأمة قد تكون أحسن وجها وأدمث شمائل، وأحلى حركات، إلا أنها لاتوصف بكرم جوهر الحرة، ولابشرف عرقها، وعتق نفسها، وفضل حيائها»[٣].

---

(١) النقد الأدبى الحديث ٣٨٦.

(٢) النقد الأدبى الحديث ٣٨٤.

(٣) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان التوحيدى تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين بيروت ١٩٥٣ ١٣٢/٢-١٣٤.

الرحلة العربية حتى القرن الرابع الهجرى

من الشائع عن العرب أنهم بدو رحل، وهو حكم يحتاج لمناقشة موضوعية؛ فالدكتور حسين نصار يذهب إلى خطأ «الذين يظنون أن أهلها ـ الجزيرة العربية ـ بدو رحل ، لا يقرون فى مكان، ولا يتصلون بالأرض التى يسكنونها اتصالا وثيقا»[١] ، اعتمادا على أن ثمة مناطق خصب كما أن هناك مناطق جدب، وأن كل قبيلة كانت حرة الحركة فى نطاق معين تحدده لنفسها ولا تتعداه.

وتكتمل الصورة بالتذكير بأن الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية لم يكن أهله بدوا بحال، بل كانوا متحضرين بقياس عصرهم، ومع ذلك كانوا منفتحين على العالم الخارجى، وكان البحر وسيلة هذا الانفتاح.

بيد أن اعتبار العرب بدوا رحلا سلم به، وأخذ كثيرون يلتمسون تفسيرا له، ومن هؤلاء «المسعودى» الذى نقل عن ذوى الآراء من العرب قولهم: «إن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف فى الأرض ومقطعة عن الجولان، وتقييد للهمم، وحبس لما فى الغرائز من المسابقة إلى الشرف، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة»[٢] ، كما عزا اختيارهم سكنى البوادى إلى عوامل بيئية.

ونقل أن بعض العرب وفد على كسرى، فسأله «كسرى عن شأن العرب وسكناها البر واختيار البدو، فقال: «أيها الملك، ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمنوا من التحصن بالأسوار... فمن ملك قطعة من الأرض، فكأنها كلها له»[٣] .

وابن خلدون يعزو هذا الأمر إلى عوامل اقتصادية[٤] ، والخلاف الرئيسى بينه وبين المسعودى، أن الأخير ينسب إليهم اختيار طريقة حياتهم، بينما ابن خلدون

---

(١) نشأة الكتابة الفنية د/ حسين نصار. النهضة المصرية. ١٩٦٦، ص١١

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر «المسعودى» تحقيق محمد محيى الدين. دار المعرفة. بيروت ١٩٦٤، ١١٩/٢ .

(٣)(المصدر السابق) ٢/ ١٢١، مع اعتبار أن العرب فئات، منهم أهل الحضر، والبدو أو الأعراب، وعرب الجنوب.

(٤) مقدمة ابن خلدون تحقيق د/ على عبد الواحد وافى. دار النهضة مصر. ١٩٧٩ ٢/ ٤٧٢

ينسب إلى إبلهم أنها فرضت عليهم تلك الطريقة فى العيش، والتوفيق بينهما جائز، مع اعتبار أن ابن خلدون يقصد بالعرب «الأعراب».

كان النشاط التجارى فى الجاهلية الباعث الأول للرحلة، وكان للجنوبيين باع طويل فى هذا المجال كفل لهم ازدهارا حضاريا كبيرا، غير أن انهيار «سد مأرب» مثل نكسة لحضارة اليمنيين ورحلاتهم التى تحولت إلى رحلات هجرة جماعية فحسب.

أما عرب الشمال البدو فقد حكمت رحلاتهم الظروف المحيطة بهم، ولذا فقد كانت متقلبة حسب تلك الظروف، وخاضعة لها.

ولعل النشاط الأساسى الذى قام به عرب الشمال المتحضرون -بخاصة المكيون منهم- كان التجارة، تلك التجارة التى قامت على الوساطة بين مخزن السلع فى اليمن، وسوق تصريفها فى الشام وبلاد الروم.. والعكس. وقد وصف القرآن الكريم تلك الرحلة بأنها «رحلة الشتاء والصيف».

وبعيدا عن الرحلات الجماعية التجارية كانت رحلات فردية، تعبر عن وضع خاص لصاحبها، وقد سُجل عدد من هذه الرحلات فى أشعار كبار الشعراء الجاهليين، كما أن نصائح نثرية وجهت إلى الجاهليين توصيهم بالرحيل.

بيد أن تسجيل تلك الرحلات لم يتيسر بسبب عدم توفر الوسائل الحضارية اللازمة لذلك، والاستثناء الوحيد فى هذا المجال تمثل فى تقليد شعرى التزمه أغلب الشعراء، ذلك أن الشاعر كان يدلل على حبه بذكر الأطلال، أو النص على الرحلة كتخلص حسن من أجل الدلوف إلى مدح من يريد. وما بين ذكر الأطلال والنص على الرحلة، دلل الشعراء الجاهليون على سموّهمتهم ومرونة حركتهم ومعرفتهم الجيدة ببلادهم.. تلك المعرفة التى كانت نتيجة مشرقة من نتائج الرحلة. ومن يتتبع معجما جغرافيا -كمعجم البلدان- يجده يحدد موقع المكان، ويصحح اسمه ورسمه من خلال أشعار هؤلاء.

ورحلة الحج كانت طقسا دينيا عند الجاهلين، وهي وإن كانت جاهلية فى

مبدئها، فقد أصبحت إسلامية فى منتهاها، بعد أن طهرها الإسلام من كل مظاهر الوثنية.

لقد كان من شأن الإسلام أن يقضى على كل ما يخالف العقل والعقيدة، وأن يدعم كل ما يتفق معهما؛ ولذا فقد دعم الإسلام الرحلة بكل قوة وأولاها اهتماما خاصا، إن مباشرة أو بطريق غير مباشر.

جاء فى القرآن الكريم الأمر بالسير فى الأرض أكثر من خمس عشرة مرة، كقوله تعالى **﴿فسيروا فى الأرض﴾** (١٣٧/٣)[١]، وقوله تعالى: **﴿قل سيروا فى الأرض﴾** (١١/٦، ٦٩/٢٧، ٢٩/ ٢٠، ٤٢/٣٠)، والتعجب من عدم السير فى الأرض، كقوله تعالى: **﴿أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾** (٤٦/٢٢)، وبالصيغة نفسها مع بعض الاختلاف فى (١٠٩/١٢، ٩/٣٠، ٤٤/٣٥، ١٢/٤).

وعلى سبيل التذكير أورد القرآن الكريم عدة رحلات قام بها أنبياء كسيدنا موسى، ويوسف، ونوح، ويونس- الذى تمثل رحلته فى بطن الحوت حدثا ملهما للخيال - ومحمد - صلوات الله عليهم- أوردها لتكون دليلا على أهمية الرحلة فى صقل هؤلاء الأنبياء، كى يكونوا قادرين على تحمل الأمانة والقيام بعبء الرسالة.

لقد أكد الإسلام على ضرورة أن يكون للرحلة هدف، ولذلك فإن ما يُعرف بالسياحة -عند الصوفية هوجم بشدة من قبل بعض العلماء كالإمام الغزالي، وابن الجوزى[٢].

ومن أجل أن تؤتى الرحلة ثمارها خفف الإسلام عن كاهل المسلم المسافر؛ فالسفر «يفيد فى الطهارة رخصتين: مسح الخف والتيمم، وفى صلاة الفرض رخصتين: القصر والجمع، وفى النفل رخصتين: أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشيا،

---

(١) رقم السورة، ثم يليه رقم الآية.

(٢) تلبيس إبليس. ابن الجوزى. مكتبة المتنبى ط١٣٨٦هـ، ص٢٩٧.

وفى الصوم رخصة واحدة هى: الفطر. فهذه سبع رخص» [١].

وقد اشتراط الإمام الغزالى أن تكون نية الآخرة الباعث على السفر، وأن يلتزم المسافر بآداب معينة ضمنها فى باب «آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه» [٢]، وهى تنقسم عنده إلى: آداب ظاهرة، وآداب باطنة.

أماما قدمه الرسلام للرحلة فكثير، ولعل أهم إنجاز تمثل فى توفير الأمن والأمان للرحال المسلم سواء أكان فردا أو فى جماعة، وفى بسط هيبة الدولة القوية الفتية على أرجاء العالم بأسره، مما جعل من كل رحال مسلم إنسانا مميزا أينما حل.

وحتى بعد أن «انقسمت هذه الإمبراطورية الواسعة إلى ممالك منفصلة، احتفظت الرحلة -لدى الرحالة المسلمين- بسهولتها النسبية بسبب الأخوة الإسلامية التى أشاعت الثقة لتزيل كل الاختلافات سواء من حيث الجنس أو الأصل» [٣].

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٥٨.

(٢) السابق ٢/٢٥١- ٢٥٧.

(٣) Travel and Travellers of the Middle ages. Newton. A.P. london. 1930 p.89.

الرحلة العربية.. والقرن الرابع الهجرى

لماذا يتوقف هذا البحث عند القرن الرابع الهجرى؟

يكاد الباحثون فى هذا المجال يجمعون على أن الرحلة فى القرن الرابع الهجرى شهدت ازدهارا لم تعرفه فى القرون السابقة أو اللاحقة، حتى إن أسس أدب الرحلة وضعت فيه، كما أن كتب الرحلات التى ألفت فيه كانت الأساس الذى قامت عليه الأعمال التالية، سواء فى الأدب أو الجغرافيا أو الموسوعات أو المعاجم المتخصصة.

إن باحثا خبيرا ومدققا مثل «كراتشكوفسكى» -وغيره- قد أعلن -فى غير موضع- أن القرن الرابع هو عصر الرحلة الذهبى، ففى هذا القرن «بلغ الأدب الجغرافى أوجه فى مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة بذاتها.. وقد بلغ عدد الرحالة فى هذا القرن حدا كبيرا.. كما ارتبطت (الجغرافيا) ارتباطا وثيقا بالموضوعات الأدبية والعرض الأدبى. وإلى جانب هذا يقدم لنا القرن العاشر -الرابع الهجرى- شخصيات كبرى ذات جوانب متعددة ليست -هى- شخصيات جغرافية بالمفهوم الضيق للفظ»[1].

وعلى هذا فإنه «يمكننا أن نقرر -بكل اطمئنان- أن القرن العاشر -الرابع الهجرى- هو عصر الازدهار الخلاق للأدب الجغرافى العربى. وإنه لمما يسترعى النظر ليس العدد الكبير من الكتاب البارزين فحسب، بل ظهور حركة جديدة يطلق عليها -بجدارة- اسم «المدرسة الكلاسيكية للجغرافيا العربية»[2].

لقد كان القرن الرابع عصر انفتاح على العالم الخارجى، فالقرن الثالث اقتصر -فى أغلب أعماله- على الجزيرة العربية وما صاقبها، هذا بينما تخلص كتاب القرن الرابع ورحالوه من هذا الانغلاق، وتوسعوا لتشمل رحلاتهم ومؤلفاتهم معظم العالم المعروف حينئذ.

---

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى ١/ ١٧٧.

(٢) السابق ١/١٩٣.

إن القرنين -الثالث والرابع- أكمل كل منهما الآخر، وشكلا سلسلة متواصلة الحلقات ساهمت فى تقديم صورة ممتازة للعالم الإسلامى وصورة جيدة للعالم بأسره.

وبعد هذا الازدهار وتلك الطفرة التى شهدها القرن الرابع «قل إنتاج المؤلفات الجغرافية العامة الجديدة فى القرن الحادى عشر -الخامس الهجرى، ويعود ذلك -من غير شك- إلى استمرار انحلال العالم الإسلامى سياسيا. ثم يمكن أن نقول أيضا: إنه قد تم ذكر كل شيء خاص بدلائل المسافرين، وأوصاف المملكة مما تتطلبه الحياة الأدبية والعلمية»[1].

ومن أسباب توقف هذا البحث عند نهاية القران الرابع أن هذا القرن - وما سبقه - لم ينل ما يستحق من الدرس والتحليل فى مجال «أدب الرحلات» خاصة، وتاه كثير من أعلامه الكبار الذين وضعوا أسس أدب الرحلات من خلال مؤلفاتهم القيمة التى درست كمصادر لدراسات علمية متعددة الاتجاهات -تاه هؤلاء بسبب ذلك الإجحاف المتعمد حينا، وغير المتعمد أحيانا، والمتمثل فى اقتران أدب الرحلات العربية بابن جبير وابن بطوطة فحسب.

إن أحدا من الباحثين العرب لم يخص ابن فضلان أو المسعودى أو أبادُلف أو الإصطخرى أو ابن حوقل أو المقدسى -وغيرهم- بدراسة فنية برغم أن أعمالهم يصمد الواحد منها لدراسة -بل دراسات- متميزة. ولقد ساعد على هذا القصور أنهم يعتبرون جغرافيين، وأن كتبهم مصنفة ككتب جغرافيّة فحسب.

---

(١) الجغرافيا عند المسلمين -كتب دائرة المعارف الإسلامية (٩) دار الكتاب اللبنانى بيروت ١٩٨٢، ٠٤٣